

العدد التاسع عشر / السنة الخامسة / (أبريل - يونيو) ٢٠١٠

www.hiramagazine.com

بسم الله الرحمن الرحيم



نشاطات "حراء"

إن الفكـر الـذي انبثقت عنـه "حراء" هو بالأسـاس فكر انسـيابي، ليـس مـن طبيعتـه التوقـف عنـد مـكان دون مـكان. وواحـد من هـذه الانسـيابيات حضـور "حراء" فـي ٢٠١٠/١/١٦ فـي الأردن ومشـاركتها الفاعلـة فـي المؤتمـر المعنـون: "رؤى معاصـرة للإصـلاح الإسـلامي ودورهـا فـي تعزيز السـلام العالمـي.. تجربـة فتح الله كولـن التركية نموذجـاً" وهي بهذا تسـهم إلى حد مـا مع المفكرين الآخرين في ترسـيخ مفهوم السـلام العالمـي ومـاذا يمكـن لتجربـة الأسـتاذ فتـح الله أن تضيـف إليـه.

و"حـراء" وهـي تثمـن دائماً نتاجـات أفـكار كتّابها، وإسـهاماتهم المتميـزة فـي إثـراء المجلة، لـم تنس واحداً مـن كتّابهـا الكبار الذي انتقل إلى رحمة الله عن قرب وهو الأستاذ الدكتور "فريد الأنصاري"، فعقـدت "ندوة وفاء" في الدار البيضاء بالمغرب يوم ٢٠ فبراير ٢٠١٠ لاسـتذكار فكـر الرجـل وتقويم ما أعطاه من فكـر لمجلة حراء خلال سنين عديدة، لا سيما وأن المناسبة وافقت صدور آخر كتاب ألفه قبل الرحيل، وهو رواية "عودة الفرسان".

و"موريتانيـا" هذا البلد الخصب بشـعرائه وأدبائـه وعلمائه الأفذاذ في علوم القرآن والمتعشقين للشعر والأدب، خصصت "حراء" إحدى أكبر جوائزها لأفضل ما جادت به قرائح شعرائها من مديح وثناء على الرسـول الأعظم ﷺ، وهي تحلي صدرهـا بالقصائد الفائزة وتزين بها صفحاتهـا، وقـد تم توزيـع الجوائز علـى الفائزين في حفـل رائع في العاصمة نواكشوط يوم ٢٣ فبراير.

أما في "اليمن" فنشـاطات "حراء" لا تقلّ أهمية عن نشـاطاتها في الأماكن الأخرى. فقد عقدت "حراء" ندوات تعارفية في كل من مدينة صنعـاء بالتعاون مع جامعة صنعاء العريقـة، ومدينة عدن بالتعاون مع مديريـة وزارة الأوقاف؛ كما افتتحت "حـراء" في اليمن وموريتانيا في نفـس الوقـت معرضاً حافـلاً بصور آثار الرسـول ﷺ وصحابته الكرام الموجودة حالياً في متحف قصر طوب قابي في إسطنبول.

و"حراء" إذ تفعل ذلك تنطلق من مفهوم التواصل الثقافي والعلمي والتاريخـي بيـن تركيا والعالـم العربي، وهي تحـاول جهدها أن تقيم جسوراً من التواصل الحميمي بينها وبين الثقافات الشقيقة الأخرى.

وبعـد: فـإن "حـراء" تنعى إلـى قرائهـا بمزيد من الحزن والأسـى الأستاذ الفاضل "أورخان محمد علي"، هذا الرجل الصابر المحتسب الذي ظل يصارع مرضه العضال بشجاعة نادرة، ولم يدع القلم يسقط مـن بين أنامله حتـى أواخر أيامه، فكتب الكثيـر وترجم الكثير. ولعل أعظم نتاجاته في الترجمة كتاب "النور الخالد" للأستاذ فتح الله كولن، بالإضافة إلى جملة كبيرة من كتبه الأخرى ومقالاته.. تغمد الله الفقيد برحمته وأسكنه فسيح جناته.. آمين.. ■



مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

العدد التاسع عشر – السنة الخامسة (أبريل – يونيو) ٢٠١٠

التصور العام

• حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.

• تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.

• تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.

• تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

• أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.

• ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.

• يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.

• تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.

• المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.

• تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.

• النصوص التي تنشر في المجلة تعبّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.

• للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.

• مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:
Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير
هانئ رسلان
hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير
أجير إشيوك
eisiyok@hiramagazine.com

المخرج الفني
مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Kısıklı Mah. Meltem Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +20222631551
الهاتف الجوال : +20165523088
جمهورية مصر العربية

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

الطباعة
Çağlayan Matbaası
İzmir - Türkiye
Tel: +90 (232) 252 20 96

رقم الإيداع
١٣٠٦-١٨٧٩

للاشتراك من كل أنحاء العالم
pr@hiramagazine.com



المحتويات



EGYPT
7, el-Barameka st, off al-Tayaran st. al-Hay al-Saabi
Nasr City-Cairo/EGYPT
Tel-Fax: +20222631551 Mobile: +20165523088

TÜRKİYE
Kısıklı Mahallesi, Meltem Sokak, No:5
34676 Üsküdar-İstanbul/TÜRKİYE
Phone:+90(216) 318 60 11 Fax:+90(216) 422 41 40

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone:+1 732 868 0210 Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
AL Watania Distribution الوطنية للتوزيع
P.O.BOX 8454 Riyadh Zip Code: 11671 Saudia
Tel: +966 1 4871414
GSM: +966 504358213

SYRIA
GSM: +963 944 355675

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Tel: +212 22 24 92 00

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي، أمام الجامعة القديمة
Tel: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
GSM: +213 770 625650

SUDAN
Tel: +249 918248388

JORDAN
GSM: +962 776 113862

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Tel: +971 266 789920

MAURITANIA
Tel: +2223014264



أرواح نذرت أنفسها للحق

فتح الله گولن

إن أهم جانب يستدعي النظر ويجلب التقدير والإعجاب عند الأبطال الذين أحبوا الله تعالى ونذروا حياتهم في سبيل رضاه وارتبطوا بغاية مثلى هي نيل محبته.. إن أهم جانب لدى هؤلاء الأبطال وأهم مصدر من مصادر قوتهم، هو أنهم لا يبتغون ولا ينتظرون أي أجر مادي أو معنوي. ولن تجد في خططهم وحساباتهم أنهم يعيرون أهمية لأمور يسعى طلاب الدنيا للحصول عليها كالأموال والأرباح والثروة والرفاهية... هذه الأمور لا تشكل عندهم أي قيمة، ولا يقبلون أن تشكل عندهم أي مقياس.

إن القيمة الفكرية لهؤلاء الناذرين أرواحهم تعلو على القيم الدنيوية إلى درجة يصعب معها تحويل محور هدفهم المرتبط برضا الله دون أي غرض آخر ودون أي تنازل. أما ربطهم بهدف بديل فمستحيل. والحقيقة أن قلب كل منهم قد تعرض لتحول جذري من كل ما هو زائل وفانٍ إلى الباقي أبداً، لذا فلا يمكن قطعاً أن يتغير إلى شيء آخر، ولا أن يصعد إلى مستوى أعلى، لأنه يعلم يقيناً أنه لا يوجد مستوى أعلى من قضيته ومن فكرته... فهو قد نذر نفسه لإرشاد الناس إلى الحق تعالى وتحبيبه إليهم، لتحقيق الحصول على محبته تعالى، وربط حياته لإحياء نفوس الآخرين، ونأى بنفسه عن أي هدف عرضي وزائل، أي قلّص هدفه رافعاً من قيمته، ومخلصاً له من التشتت وموحداً قبلته... نظراً لكل هذا فلن تجد عند أمثال هؤلاء شعارات تفرق ولا تجمع، وتشتت ولا توحد وتقود إلى النزاع من أمثال "هم"

و "نحـن" أو "أنصارنـا" و"أنصارهـم". ولا توجـد عندهم أي مشكلة ظاهرية أو خفية مع أحد، ليس هذا فحسب، بل تراهم في سـعي دائـم ليكونوا ذوي فائدة لكل مـن حولهم، ويبدون عناية فائقة لعدم إثارة أي مشـاكل أو حساسيات في المجتمع الذي يعيشـون فيه. وعندما يرون سـلبيات فـي مجتمعهم فلا يتصرفـون كمحاربيـن غلاظ، بل كمرشـدين رحمـاء يقومون بدعوة الأفراد إلى الأخلاق الفاضلة، ويسعون في هذه السبيل سـعيا حثيثا، ويبذلون ما بوسـعهم للابتعاد عن فكرة الحصول على نفوذ سياسـي أو الوصول إلى مناصب مختلفة مهما كان الثمن وأياً كان الأسلوب.

إن أهم ما يميـز العمق الداخلي لهؤلاء الناذرين أرواحهم لله هو المعرفة وتقييمها، وأسس أخلاقية قويمة وسيادتها على كل مظاهر الحياة وميادينها، وفضيلة قائمة على الإيمان وعدم الاسـتغناء عنها. وهـم يبدون اهتماماً خاصّـاً للابتعاد عن كل شيء لا يفيد مستقبلهم ولا سيما حياتهم الأخروية من دعايات فارغـة لجلب شـهرة أو صيت أو نفع مـادي، ويبذلون كل ما بوسـعهم إلى درجة الإرهـاق لتوجيه الذين يسـيرون وراءهم أو يحترمونهم إلى المعاني الإنسـانية السـامية بجعل معارفهم وأفكارهم ذات مغزى بالامتثال بها كلٌّ حسب سعة أفقه. وهم إذ يقومـون بهـذا لا يبتغـون جزاء ولا شـكوراً، ويحاولون أن يبتعدوا عن المصالح الشـخصية والمنافـع ويهربوا منها مثلما يهربون من الأفاعي والعقارب. وهم يتصرفون هكذا كتحصيل حاصـل لعمق غناهم النفسـي الذي ينأى بهم عن كل نوع من أنـواع الدعاية والضجيج وحـب المظاهر، ويملكون من القوة ما يعصمهم عن هذه السفاسـف. كما أن تصرفاتهم وسلوكهم النزيه والجميل الذي يعكس صدى أرواحهم يكون له من قوة الجاذبيـة والتأثيـر ما يسـخر به كل مَنْ يعقل مـا حوله فيجعله يسير وراءهم مسرعاً.

لذا لا يدور بخلد أي واحد من هؤلاء أن يتكلم عن نفسه أو يتوسـل إلى الدعاية لرفع شأنه ولا يظهر أي رغبة أو شهوة في نشـر صيته. وعوضاً عن هذا نراه يحاول بكل جهده ليبلغ مستوى حياة القلب والروح، رابطاً كل فعالياته هذه بالإخلاص ولا يبتغـي غير وجه الله تعالـى. وبتعبير آخر يهدف كل واحد منهم إلى نيل رضاء الله وحده ويسعى إلى هذا الهدف السامي بكل حوله وقوته، ولا يلوث أحد منهم عزمه الصارم -القريب مـن عزم الأنبياء- بالأغراض الدنيويـة ولا بمحاولة الحصول على الصيت والشهرة بين الناس أو نيل إعجابهم.

وبمـا أن الإيمـان والإسـلام والقـرآن يتعرض اليـوم إلى هجوم وانتقادات مباشرة وعلنية، وتثار الشبهات حولهم، كان من الواجب أن تتوجه الجهود جميعها نحو نقاط الهجوم هذه لتحصيـن الأفكار والمشـاعر الإسـلامية لدى الأفـراد، وإنقاذ الجماهير من حياة سائبة لا هدف لها وربطهم وتوثيق صلتهم بالأفـكار والأهـداف العاليـة. ولا يمكن إشـباع هـذه الحاجة وإنقـاذ الأفراد مـن اللهاث وراء البحث عن أهداف أخرى إلا بتقوية الإيمان في القلوب من جديد بكل ألوانه وزينته وجماله وأسـلوب خطابـه. وبعبارة أخـرى توجيه الإنسـان إلى الحياة الروحية والقلبية من جديد. ويكتسب هذا الأمر أهمية خاصة، ولا سـيما في عهد يـرى فيه البعض ضرورة تغيير كل شـيء، وتغييـر بنية القالب الاجتماعي وتحويلها، ثم صبها في قوالب جديـدة؛ لأن أيـة محاولات مـن هذا النوع تحمـل في طياتها احتمـال النزاع والشـقاق والاحتـكاك والتفـرق، بينما لا نجد سوى التفاهم والوفاق والتعاون في أسلوب التوجيه الإيماني.

لا تعيـش الأرواح التـي نذرت نفسـها لرضـا الحق تعالى أي فـراغ في حياتها العقلية والمنطقية نتيجة توحيد قبلتها، بل تراهم منفتحين على الدوام على المنطق وعلى العلم ويعدون هـذا من ضرورات الإيمان الحقيقـي، مع ملاحظة أن الأهواء الدنيوية لهؤلاء والرغبات الجسدية لهم تذوب في حنايا قربهم من الله وتذوب في أعماق مشـاعر وجو التوحيد عندهم الذي يشـبه المحيطـات في سـعتها وأعماقها وأغوارهـا. لذا تنقلب هذه الرغبات عندهم إلى شكل آخر وإلى صورة أخرى... إلى ذوق روحاني نابع من رضا الله. لذا فإنه في الوقت الذي يتنفس فيـه هؤلاء -الذين نذروا أنفسـهم للحق تعالـى- جواً ملائكياً فـي ذرى حياتهـم الروحيـة والقلبية تراهم يتعاملـون مع أهل الدنيا أيضاً ولا يتأخرون عن استعمال جميع حقوقهم الدنيوية المشـروعة. لـذا يُعَدّون مـن جانبٍ أهل دنيا لأنهم يتوسـلون بالأسـباب ويستعينون بها ويراعونها، ومن جانب آخر يعدون من أهل الآخرة لأنهم يسـتثمرون كل شـيء وكل مسـألة من زاوية حياتهم الروحية والقلبية. ولا يعني قيام حياتهم الروحية والقلبية بتحديد حياتهم الدنيوية بدرجة ما أنهم يهملون الحياة الدنيويـة ويتركونها تماماً أو ينعزلون عنها تماماً، على العكس فهـم يقفـون كل حين في وسـط الدنيا منخرطيـن فيها. ولكن موقفهـم هـذا ليس من أجل الدنيا ولا باسـمها، بل باسـم الله

ورعاية للأسباب ولربط كل شيء بالآخرة.

والحقيقة أن هذا هو السبيل الوحيد لإبقاء الجسد في إطاره والروح في أفقه، أو ربط الحياة وجعلها تحت إمرة القلب والروح. فإطار حياة البدن محدود بالمقياس الضيق للجسد، لذا يجب أن يتوجه أفق الحياة الروحية المتطلعة إلى الخلود نحو اللاتناهي على الدوام. وهكذا فإن قام الإنسان -باعتبار هذا المستوى لأفق حياته- بالتعامل مع الأفكار السامية في كل حال من أحواله، ووجّه حياته لواهبها ورأى أن الإحياء أعمق شيء في الحياة، ورنا بنظره نحو الذرى على الدوام تحول -أراد ذلك أم لم يرد- إلى شخص يطبق برمجة سامية. لذا يقوم بلجم أهوائه وبتضييق أذواقه الشخصية ولكن ضمن إطار معين.

لا شك أن القيام بتوجيه الحياة وتسييرها وفق هذا العمق ليس أمراً هيناً، ولكن هذه الصعوبة سرعان ما تتحول إلى أمر هين عند من نذر نفسه لله، وجعل غاية حياته تعريف خالقه للناس وتحبيبه إليهم، وتراه يدق بإحدى يديه على أبواب قلوب الناس ويدق بيده الأخرى على باب رحمة الحق تعالى، فهو في حركة دائبة بين هذين الأمرين رامياً هداية الجميع وتوجيههم إلى الباري ﷻ.

والحقيقة أن من يشعر بدفء الإيمان بالله تعالى في أعماقه.. ويسعى ليعبر عن هذا بلسان قلبه وجذوة فؤاده خشية منه سبحانه حيناً وحباً له أحياناً أخرى.. مثل هذا الإنسان لن يواجه أي صعوبة في أي أمر، إذ كلما قصر تفكيره ونظره في الله تعالى، وفي البحث عن سبل الوصول إليه، وتقييم كل وسيلة حسب تقريبها وتوصيلها إليه... كلما جعله الحق تعالى محط نظره وعنايته الخاصة موقَّراً ومُحترَماً من قبل الجميع، أي إنه في مقابل وفاء أرضي ضئيل، يكون الوفاء السماوي أضعافاً مضاعفة. وهاكم قطرة واحدة بسعة البحار من هذا الوفاء: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(الأنعام:٥٢). ولم يكن هؤلاء الذين نبه الله تعالى رسوله الكريم ﷺ بعدم طردهم من مجلسه سوى المداومين على حضور مجلسه من الذين نذروا أنفسهم لرضا الله تعالى.

وحسب درجة الإخلاص في هذا النذر، وكونه صادراً من صميم القلب نرى عطفاً خاصّاً من الحق تعالى نحوهم، وإسباغ فضل خاص عليهم. أجل!.. بقدر ارتباط المرء بالله تعالى ومحاولة كسب رضاه وجعل هذا الأمر غاية حياته وهدفها يلقى أفضال الله عليه وأنعمه ويكون موضوع حوار في عوالم ما وراء السماوات. كل فكر لمثل هذا الإنسان في الدنيا وكل كلام أو سلوك وتصرف يضمخه الإخلاص ويعطره يتحول في ذلك العالم الآخر إلى جو من النور وإلى صحائف تقدير مبهجة. وهؤلاء السعداء الذين ملأوا أشرعتهم بنسائم هذه السعادة المقدسة يهرولون إليه مسرعين على الدوام فضلاً منه تعالى حسب عمق إخلاصهم، ولا يقف أمامهم أي عائق.

والصورة التي يرسمها القرآن لهؤلاء تستحق التأمل:

﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ۞ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(النور:٣٧-٣٨).

إن أمثال هؤلاء الأبطال من ذوي الأرواح التي تخلصت من كل أنواع الأسر وألوان القيود، والذين رموا أعباء كل أحزانهم وهمومهم عن أكتافهم بتسليم أنفسهم لله والتوكل عليه، قد وجدوا كل شيء، إذ بجانب الأفضال والهبات التي حصلوا عليها في عالم القلب والروح لا تعني جميع النعم الدنيوية الغالية والأهواء والمباهج إلا كفضلات الطعام والأقداح الفارغة فوق الموائد.. وتجاه لوحات الجمال وصورها التي تزين عوالم قلوبهم لا تعد الدنيا وما فيها إلا خرافة من الخرافات أو أسطورة من الأساطير. وما قيمة شيء يخضر في الربيع ثم يبهت لونه في الخريف..! فإن الأرواح التي تعي هذه الحقيقة وتعايشها على الدوام وترنو ببصرها إلى الخلود والبقاء، ترسم إشارة الضرب على كل شيء لا يحمل صفة الأبدية وتدير ظهرها له، وتسير في طريقها دون الالتفات نحوه... تسير في درب القلب إلى بساتين الأبد وحدائق الخلود، ولا تلوي إلى الدنيا ولا إلى زخارفها. ■

(*) الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.



المبادئ القرآنية

وبناء النموذج المعرفي الإسلامي

أ.د. علي جمعة *

١ المتدبر في القرآن يجد طائفة غير قليلة من الآيات القرآنية أو بعض الآيات يمكن أن تعد مبدأ عاماً يمثل مكونا أساسياً من عقلية المسلم. وهذه المبادئ العامة إذا جمعت في نسق واحد ودرس ما بينها من علاقات بينية، لمثّل ذلك منهجاً واضحاً وأساساً متكاملا لتفكير المسلم، سواء في الجانب الفقهي والتشريع القانوني، أو في مجال الفكر والنظرة الكلية للإنسان والكون والحياة، أو كان في مجال القيم والأخلاق على كافة المستويات.. وتتبع هذه المبادئ يساعد أيضاً على بناء النموذج المعرفي الإسلامي بصورة لافتة للنظر.

المقصود بالمبدأ العام

والمقصود بالمبدأ العام هنا حقيقة تهيئ الإنسان للتكليف. فالمبدأ يختلف عن مطلق الحقيقة التي كثيرا ما ينبه عنها القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(الفتح:١٤)، أو قوله: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾(الحج:٥)، أو غيره من الحقائق الإيمانية أو الكونية حيث لا تشتمل على تكليف ولا تهيئ الإنسان لذلك التكليف مباشرة.

والمبدأ يختلف أيضاً عن الحكم الشرعي الذي يشتمل مباشرة على التكليف مثل قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾(الإسراء:٧٨)، فـ"أقم الصلاة" تكليف، وجملة "إن قرآن الفجر كان مشهودا" حقيقة إيمانية.

والمبدأ يختلف أيضاً عن القاعدة الفقهية أو الأصولية من حيث المنشأ. فالقاعدة الفقهية نشأت بعد تفريع الفروع في

الفقه الإسلامي، وكأنها قد جردت فروعاً كثيرة وأخذت المشترك بينها وصاغته في صورة قاعدة مثل "لا ضرر ولا ضرار"، "الأمور بمقاصدها"، "الشك لا يرفع اليقين"، "العادة محكمة".. إلى آخر ما اهتمت به كتب القواعد الفقهية والأشباه والنظائر.

وكذلك القواعد الأصولية التي نشأت من تتبع اللغة العربية أو المصادر الشرعية مثل "الاستثناء معيار العموم"، "الأمر للوجوب ما لم تصرفه قرينة تدل على غير ذلك" أو "النهي يقتضي الفساد" أو "المشترك لا يعم"... إلخ، مما نراه يرد في علم أصول الفقه.

المبدأ ووجود الإنسان

والمبدأ يشتمل على حقيقة، وعلى تكليف مباشر، ولا معنى لوجوده من غير وجود الإنسان، فالإنسان هو موضوعه. والمبادئ القرآنية التي نوردها إنما هي على سبيل المثال تنبيه لهذا الجانب العظيم من القرآن الكريم، وهي تحتاج إلى تتبع واستقصاء مستقل وبحث خاص يقوم بعد استقرائها بإيراد كلام أهل التفسير عنها، ثم يبين عناصر كل مبدأ وما يلزمه من مقدمات وما يترتب عليه من نتائج، ثم يقوم ببيان العلاقة البينية بين كل هذه المبادئ لبناء النموذج المعرفي، ثم بيان كيفية تشغيلها في المجالات المختلفة: السياسة، والقانون، والاجتماع البشري، والتربية، والفكر، والعبادة، والعقيدة، والدعوة... إلخ. فمن تلك المبادئ:

المتدبر في القرآن يجد طائفة غير قليلة من الآيات القرآنية أو بعض الآية يمكن أن تعد مبدأ عاماً يمثل مكونا أساسياً من عقلية المسلم. وهذه المبادئ العامة إذا جمعت في نسق واحد ودرس ما بينها من علاقات بينية، لمثل ذلك منهجاً واضحاً وأساساً متكاملا لتفكير المسلم..

﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦)

فهذه عبارة تبين حقيقة، لكنها حقيقة تهيئ الإنسان للتكليف فتمنعه من فرض العقائد بالقوة وترشد إلى الدعوة والحوار والتعددية الدينية، وأن الإسلام لا يريد منافقين يؤمنون بألسنتهم وتأبى قلوبهم الإيمان بل: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(الكهف:٢٩)، و﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النحل:١٢٥)، و﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾(الكافرون:٦)، و﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾(النساء:١٤٥).

وهذا المبدأ يقرر حقيقة يترتب على تنفيذها عدة تكاليف وإجراءات، وفي نفس الوقت يعد شعاراً للإسلام وأساساً يمثل النموذج المعرفي الإسلامي الذي يعتبر معياراً للقبول ورفض الأفكار والآراء في الإسلام.

﴿كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(الإسراء:٧٠)

ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠).والحمل في البر والبحر، ورزق الله للناس من الطيبات حقائق مشاهدة، ولكن التكريم حقيقة تهيئ الإنسان لتكليف وتلزمه بإجراءات، ومن هنا حق لها أن توصف بالمبدأ. ومن عناصر هذا المبدأ أن الله فضل بني آدم على كثير ممن خلق، وأكد ذلك باستعمال المفعول المطلق الذي يعد استعماله هنا تأكيداً للتفضيل، وبياناً أنه تفضيل حقيقي لا يدخله المجاز، كما تقرر في علوم العربية من أن استعمال المصدر كمفعول مطلق يدل على الحقيقة، وينبه لها ويمنع دعوى المجاز.

تكريم بني آدم يلزم منه أنه سيد في هذا الكون، حتى وإن لم يكن سيداً له. فسيد الكون وخالقه هو الله، أما الإنسان فهو المخلوق المكلف الذي أسجد الله له الملائكة تكريماً له، وإعلاناً لهذا التكريم بين الخلائق، وجعل الامتناع عن السجود إليه علامة بدء الشر وخراب الدنيا، وعدها معصية إبليسية طرد إبليس من أجلها وجعله رجيماً.

وتكريم بني آدم يمكن أن يكون أساساً لاعتباره حامل الأمانة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾(الأحزاب:٧٢)، وهو أساس تكليفه بالعمارة: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(هود:٦١)، وأساس الخلافة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة:٣٠)، ويمكن اعتباره أساساً لحقوق الإنسان التي هي جزء من حقوق الأكوان عند المسلمين، حيث يرون للجماد والنبات والحيوان حقوقاً متسقة مع حقوق الإنسان في منظومة كلية هي حقوق الأكوان.

﴿أَلاَ لِلهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾(الزمر:٣)

وهو مبدأ قررته السنة في الحديث الذي افتتح البخاري به صحيحه عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى..". وهو الذي صاغه الفقهاء بعد تتبع الفروع الفقهية وتجريد المشترك بينها في صورة قاعدة "الأمور بمقاصدها"، وهي قاعدة واسعة مما يبين شدة اتصال الفقه الإسلامي بمصادره، ونتبين من هذه القاعدة الفرق بين المبدأ والقاعدة. فالمبدأ منصوص عليه في النص المقدس (القرآن الكريم) فهو أصل هذه القضية، أما القاعدة فهي من تتبع الفروع وتجريدها للبحث عن المشترك الساري فيها. وهذا المبدأ يلزم منه تكاليف وإجراءات مبثوثة في أكثر من سبعين باباً من أبواب الفقه الإسلامي.

﴿القِصَاصِ حَيَاةٌ﴾(البقرة:١٧٩)

في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة:١٧٩). وهو مبدأ يبنى عليه الفقه الجنائي والضبط المجتمعي، وله تأثير في علم النفس وعلم نفس التربية، وهو يمثل حقيقة واقعة في الحياة، وأنه يجب القضاء على الشر حيثما كان.

﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾(النجم:٣٨)

وهو مبدأ يتعلق بالعقيدة حيث لا يقر الإسلام الخطيئة الموروثة، ولا يقر مبدأ الجاهلية "الجار يؤخذ بجريرة الجار"، ويؤكد المسؤولية الشخصية في كل المجالات؛ في القانون وفي الدين والعبادة، وعلى مستوى الأفراد والجماعات والدول.. فهو مبدأ كبير جداً ومهم وله أثره في كل المجالات.

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾(النجم:٣٩)

مبدأ يمكن أن تقوم عليه قوانين العمل، وهو في نفس الوقت شعار ديني واجتماعي وسياسي.

﴿عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ﴾(المائدة:٩٥)

وهو مبدأ يؤكد فورية القوانين، وأنها لا تكون بأثر رجعي، وأنه يجب البدء في تنفيذها فوراً حتى مع عدم المؤاخذة على ما وقع في الزمن الماضي.

﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾(المائدة:٦)

وهو مبدأ رفع الحرج ويؤكده قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(الحج:٧٨)، ويرتبط مع مبادئ أخرى في الأخذ بالعرف، والمشقة تجلب التيسير وذلك في قوله: ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾(الأعراف:١٩٩)، وفي قوله: ﴿إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا﴾(الشرح:٦). وفي البحث عن المبادئ العامة ينبغي البحث عن العلاقات البينية بين تلك المبادئ، للوصول إلى منظومة يمكن أن تمثل أساس النموذج المعرفي الإسلامي الذي به التقويم.

والمبادئ العامة كثيرة لا يمكن حصرها في هذه المقدمة، وإنما أردنا أن ننبه إليها ومن أمثلتها أيضا:

﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ﴾(البقرة:١٩١)، و﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾(البقرة:٢١٦)، و﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾(النساء:٣٤)، و﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾(النساء:١٢٣)، و﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾(النساء:١٢٨)، و﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾(البقرة:٢٨٦)، و﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾(النحل:١٢٦)، و﴿إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾(الإسراء:٣٤)، و﴿وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى﴾(طه:٤٧)، ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾(الأعراف:١٥٧)، و﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ﴾(الأعراف:١٥٧).

هذه هي المبادئ العامة القرآنية، والتي يمكن أن نجعلها أساساً لكل التشريعات والقوانين في حياتنا الخاصة والعامة.

ونلاحظ من تأملنا في كتاب الله أنه يشتمل على منظومة للقيم الأخلاقية العليا، والتي يمكن أن نجعل أسماء الله الحسنى هي محورها الأساسي. وبهذا نكون قد تعرفنا على القرآن الكريم وعلمنا عنه الكثير باعتباره كتاب هداية، وباعتباره محور حضارة المسلمين. ■

(*) مفتي الديار المصرية.



الحب في قيمة المشترك الإنساني

د. محمد جكيب *

١

"الحب" و"الكراهية" قيمتان تكتسيان أهمية كبيرة، عندما يتم تناولهما في ظل بعض المعطيات الموضوعية والتاريخية، التي تفرض إثارة القضية ووضعها على طاولة النقاش من زوايا مختلفة تتصل بكيان الإنسان فكرياً وثقافياً واجتماعياً. فبحث القيمتين له ما يبرره، بالنظر إلى الوضع العام الذي تعيشه الإنسانية في خضم الزخم المهول من الأحداث وتتابعها بسرعة فائقة، وكأن موازين الزمن ومقاييسه قد اختلت، حتى إن أحداً لم يعد بمقدوره البقاء بعيداً عن دائرة التأثر بذلك.

لقد وُجد "الحب" و"الكراهية" باعتبار بعدهما الأخلاقي، منذ أن وجد الإنسان، لأن حاجة الإنسان إلى "الحب" حاجة ملحة، ولا نقول إن حاجة الإنسان إلى "الكراهية" حاجة ملحة كذلك، ولكن الأشياء تدرَك بالنقيض. فقيمة الحياة لا تدرك على حقيقتها إلا من خلال حقيقة الموت، وأهمية الليل -مثلا- لا تستوعب إلا من خلال حيوية النهار، وارتفاع آمال إدراك الجنة لابد له من وقوع معاني الخوف من النار في القلب.

الحب والكراهية

إن حاجة الإنسان السوي إلى "الحب" كحاجته إلى الطعام. فالإنسان يحب الكثير من الأفعال والتصرفات، ويحب إتيانها لحاجته إليها في المقام الأول، فهو يحب العيش في جماعة بشرية، ويكره الوحدة والانعزال. وعيشه في جماعة وتفاعله معها التفاعل

الإيجابي يفرض قدراً من "الحب"، أي يفرض تقديم "الحب" كما يفرض تلقيه. وهذا الإحساس في حد ذاته هو الذي قد يدفع إلى تولد "الكراهية" بمختلف أصنافها، فالإنسان مضطر إلى كراهية أمور كثيرة، مخافة تصدع كيانه وفقدان ما يحصل عليه من حب، ومخافة اختلال توازنه.

لقد رسخ في الذهن أن "الحب" موضوع عاطفي مجاله الأدب والفن وكذلك الدين وخاصة التصوف. وقد لا يخطر على البال أن يكون موضوع "الحب" قيمة من القيم الحضارية، المؤسسة لخطاب ذي خصوصية.

كثيراً ما يربط "الحب" بحاجة الحفاظ على النوع وغريزة البقاء، ويربط من هذه الزاوية بالجنس كما يربط بغريزة الطعام، فكلاهما ضرورة لا يُتخلى عنها، وهو رأي الفلسفة الطبيعية. واهتمام الثقافات والحضارات بالقيمتين متفاوت، بل إن للّحظة التاريخية تأثيرها الخاص في القيمتين. فقد نلمس أن نظرة الناس للقيمة أعمق في مرحلة تاريخية ما، مقارنة بلحظة أخرى سابقة، لأن الوقائع التاريخية تؤثر في طبيعة التوظيف بالنظر -مثلا- إلى ما تتداوله المحافل الاجتماعية والثقافية والفكرية، من قيم فاضلة تسترشد بالحب ومعانيه في إرساء منظومتها المدنية والحضارية، أو من قيم غير فاضلة تلغي الحب وقيمه في منظومة مختلفة لا همّ لها سوى تحقيق مصلحة ضيقة تعتبر الإنسان مجرد وسيلة وليس هدفاً.

هناك حاجة مادية أو معنوية منتظَرة من "الحب"، أي إن "الحب" يكتسب صفة المعنوية أو المادية انطلاقاً من حالة الذات، وانطلاقا من الأهداف والمرامي المقصودة، دون إغفال الطرف الثاني المراد بالفعل، وهنا يتدخل عنصر القصد والإرادة في الفعل. فقد يستهدف "الحب" غاية ما؛ مادية أو آنية، فيصير فعلاً إرادياً متحكماً فيه وفي مراميه وفي مسلكه.

الحب مسلك ذوقي للارتقاء

لكن "الحب" في بعده المعنوي السامي يهدف تحقيق لذة معنوية غير مرتبطة بزمن، ولذلك قالوا إن "الحب" الحقيقي هو "الحب" المتصل بالزهد في تحقيق المصلحة والمنفعة الشخصية. وللمتصوفة بمختلف مشاربهم نظرات إلى "الحب" بهذا المعنى، أي بمعنى الزهد في كل الماديات من أجل تحقيق الالتحام بالمحبوب؛ لأن الإنسان إذا زهد في الماديات وزهد في الدنيا، وتعلق قلبه بحال روحانية تشاهد قدرة الخالق المطلقة في كل ذرة في هذا الكون، وفي كل حركة من حركاته غير المتناهية.. حقق بذلك الحبَّ الخالص لله وفي الله، فتتحول كل الأفعال والسكنات والتصرفات -بفعل ذلك- إلى مسلك ذوقي للسمو والارتقاء، والنتيجة المباشرة هي الفاعلية الكبرى للإنسان في الواقع.

وكلما توسع هذا الإحساس وتمكن من القلب والكيان كلما انعكس ذلك كله بالإيجاب على المجتمع كله. فلنتصور أن مجتمعات يسودها الحب بالمعنى المشار إليه وفي كافة المجالات؛ الاجتماعية والثقافية والفكرية، فهل ستجد الأزماتُ طريقاً إليها.

اتخذ مفهوم "الحب" في الفكر العربي القديم عدة أبعاد تعكس مدى اهتمام الثقافة السائدة والوعي الجماعي به، كما تعكس طبيعة الذوق الجماعي العام، وهو ما قد يعد نوعا من الترف الفكري البعيد عن انشغال الناس وتفكيرهم. لكن مجتمعاً تسود فيه معاني "الحب" يمكن اعتباره مجتمعاً متسامحاً، مبشراً بقيم فاضلة ترفع قيمة الإنسان في كل مكان، وهي قيم سادت المجتمع بتأثير عوامل كثيرة أهمها الدين وتطور الحياة المدنية.

بأجنحة الحب تُخترق أجواء النفس

لقد توسع متصوفة الإسلام وبعض مفكريه في إبراز قيمة الحب بنبرة مفعمة بالصدق والإخلاص والتطلع إلى الطمأنينة القلبية، وجعلوا ذلك مسلكاً إلى الارتقاء في مسالك العبودية لله تبارك وتعالى؛ على أن أغلبهم لم يفصح صراحة بأن من شأن تمكّن هذه المحبة من القلوب والأرواح والنفوس، بناء أجيال من فرسان النهار ورهبان الليل، وكذلك كان الصحابة ﷺ. فحبهم لله ولرسوله كان حباً صادقاً، وهم وإن كانوا استمدوا ذلك من نور مشكاة النبوة بحكم مصاحبتهم للرسول ﷺ، فإن همَمهم العالية وإيمانهم العميق بالرحمة المهداة إلى الإنسانية، وإيمانهم بأن الله قد أسبغ عليهم نعمة عظيمة، قد فرض عليهم واجب نقلِ وتبليغ هذه النعمة العظيمة إلى الناس كافة. ومن هنا فإن النتيجة المنطقية لهذا الشعور السامي، هو محبة الآخر محبة خالصة لله ترجوا تخليصه من الهلاك المحتوم فلولا كراهية العودة إلى الكفر وكراهية أن يتجبر الشيطان لَمَا انبرى مجتمع الصحابة والمؤمنين ينشرون الإسلام ومحبة الله ورسوله. وما أجمل تعبير الأستاذ فتح

الله كولن في وصفه للمحبة حين قال: "فالمحب الذي اخترق أجواء نفسه بأجنحة المحبة، ووصل إلى ربه في بُعد العشق والشوق لدى أدائه لحقوق سلطان قلبه ومسؤولياته نحوه، بأعضائه الظاهرة ومشاعره الباطنة، فإن قلبه منشغل به دون انقطاع وهويته محترقة بسبحات وجه الحق وفي حيرة وإعجاب، وعلى شفتيه كأس العشق.. وعندما تنفرج أمامه أستار الغيب الواحد تلو الآخر ينتشي بمطالعة المعاني المترشحة من وراء هذه الأستار، وهو في ذوق المشاهدة التي لا تطال.

فإذا ما سار سار بأمر الحق سبحانه، وإذا ما وقف وقف بأمره. وإذا تكلم تكلم بنفحات منه، وإذا ما سكت سكت لأجله، فهو أحيانا في أفق بالله، وأحيانا في أفق من الله، وأحيانا في أفق مع الله"...

الحب مشترك إنساني

وأما الثقافة الغربية فاهتمامها واسع بقضية الحب والكراهية. والمتأمل في هذا الاهتمام سيلاحظ أن المعجم يكثر من ذكر دلالات توظيف قيمتي الحب والكراهية. فـ"الحب" في المعجم عدة أصناف: فهو أولا إحساس ولبوس أشكاله متعددة؛ منها حب الله أو الحب الإلهي وحب الإنسانية، و"الحب" العائلي الأسري، وحب شخص لآخر حب رغبة، أو حباً مادياً أو فيزيائياً. وبتأمل هذه الحقول نلاحظ نوعاً من التقاطع بين الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية، وهو راجع إلى المشترك الإنساني، الذي تلتقي عنده كل الثقافات، الشيء الذي ينفي حقيقة فكرة "صراع الحضارات" ويؤكد في الوقت

الإنسان إذا زهد في الماديات وزهد في الدنيا، وتعلق قلبه بحال روحانية تشاهد قدرة الخالق المطلقة في كل ذرة في هذا الكون، وفي كل حركة من حركاته غير المتناهية، حقق بذلك الحبَ الخالص لله وفي الله. فتتحول كل الأفعال والسكنات والتصرفات -بفعل ذلك- إلى مسلك ذوقي للسمو والارتقاء.

نفسه حوارها، بل تتجاوز ذلك إلى تكاملها. فالأمر يتعلق في العمق بمفهوم عميق للحضارة في إطار إيجابي.

لكن عند التنعم في دلالة "كراهية" في الثقافة الغربية سيوجد أنها تدل على إحساس عنيف يدفع إلى الرغبة في إحداث الأذى بآخر مع التلذذ بذلك وبالذي يقع به. ومعنى ذلك أن هذه القيمة مرتبطة إما بحالة نفسية تعوض نقصاً وتغيب الإرادة، وإما برغبة إرادية في تحقيق لذة، أي إن المصاب بداء "الكراهية" يتلذذ بكراهية الآخرين، أو بتحقيق لذة أخرى منقولة إلى مجال آخر لا تتحقق فيه الرغبات إلا بـ"الكراهية".

التأثير التاريخي في المعجم

وإذا سلمنا بأن الألفاظ كائن حي يتأثر بالتاريخ، فإن قيمة "الكراهية" هي الأخرى قد تفاعلت والتاريخ الغربي، الذي عرف الكثير من الأحداث التاريخية التي أكسبت القيمة دلالتها الحالية، فهي تعكس طبيعة الوعي الجمعي الذي صنع تلك الأفكار وقام بصياغتها. ومن هنا فنحن أمام قيمة تعكس واقعا تاريخيا تبلور في إطار واقع مفعم بالكراهية.

وفي لسان العرب نجد "أن الله ﷻ ذكر "الكَره" في غير موضع من كتابه العزيز، واختلف القراء في فتح الكاف وضمها. وقد أجمع كثير من أهل اللغة أن "الكَره" و"الكُره" لغتان، فبأي لغة وقع فجائز إلا الفراء، فإنه زعم أن "الكُره" ما أكرهت نفسك عليه، و"الكَره" ما أكرهك غيرك عليه. وقال ﷻ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾(البقرة:٢١٦)، ولم يقرأ أحد بفتح الكاف فيصير الكَره بالفتح؛ فعل المضطر، والكُره بالضم؛ فعل المختار".

نخلص إلى لمس اختلاف جلي بين الحقلين. فما في المعجم الغربي يحيل على معاني كثيرة لا نجدها في المعجم العربي، وعلل ذلك كثيرة أهمها التأثير التاريخي في المعجم، لأن اللغة كائن حي يتأثر بالوقائع والأحداث. فالقيم والمفاهيم ليست بريئة، وهي تحمل في بطنها زخمها الفكري والحضاري والتاريخي، وعند نقلها إلى واقع فكري مختلف، تصير غريبة عن التربة التي نقلت إليها، فتحدث بلبلة فكرية وثقافية.

إن الحديث عن "الحب" و"الكراهية" باعتبارهما قيمتين، حديث عن العلاقات التي ينشئها الإنسان جماعات وأفرادا فيما بينهم، على الرغم من أن هناك من يعتبر "الكراهية" عاملا من عوامل الحضور، وبأن "الحب" لا يمكنه التغلب على "الكراهية" التي تتغذى في العمق على تبدد قيمة "الحب" مستحضرين ما يذهب إليه بعض علماء النفس من أن

فـي كل فرد مصـدرا دائماً للتدمير، قابلاً لأن ينتج ردود أفعال كلما اختل توازن العلاقات.

الجمال الروحي يولد الحب الروحي

"الحـب" ليـس عاطفة مطلقة كمـا تصوره الأدبيـات العاطفية وقصـص الحـب، إذ من الواجب التخلي عـن العقل والإرادة في ضبط حركته. فهو يشرك كل قوى الإنسان، ولكن مع بقاء الإنسان محتفظا بحريته ومتحكما في إرادته.

و"الحـب" كذلـك لا يقـع تحـت تأثيـر تقلبـات الشـيء المحبوب، لأن مهمته تقع خارج هذه التقلبات. هناك حب تام يفترض لقاء بآخر مماثل، والمماثلة لا تعني أن تكون الصورة ذهنيـة أو مثاليـة، ولكن تعني إنسـانا لا يُشـعر بعـدم القبول، أي أن يكـون كمـا هو دون تلميـع أو زيادة. وهذا يحصل عند الإحسـاس بالجمال حقيقة، وهو الجمال الروحي الذي يلغي المظاهر ويلمح العمق، من هنا يتولد "الحب" الروحي.

إن "الحب" حقيقة ينظر إلى القيم الكلية وليس إلى الجزئي والعابر. فالإنسـانية إذا ما نظرت بهـذا المنظار، أمكنها تجاوز الكثيـر من الاختلاف والصراع والخـوف و"الكراهية"، ولكن السـؤال هو: كيف يمكن الوصول إلى ذلـك؟ قد يقول القائل إن هذا بعيد عن أن يتحقق، لكنه حلم صغير والأشياء الكبرى تبـدأ صغيرة. وأظـن بأن مجال النقاش والحـوار والبحث في الموضوع يلزم أن يبدأ الآن وأن يتجه عمل المهتمين إلى وضع المناهـج الكفيلة بصناعة "الحب" بـدل صناعة "الكراهية". لا قيمة للحب إذا لم يكن متبادلا، وتبادله لا يعني التسـاوي؛ إنه تبـادل في إطـار الاختلاف مثـل اختلاف الرجل عـن المرأة، والشيخ عن الشاب، والمعلم عن المتعلم.. فكل طرف يحب باعتبـار ذاتـه في إطـار رابطة، وكل طرف يعطـي ويتلقى، وما يعطيه غير الذي يتلقاه.

إن مكمـن القوة في "الحب" يوجـد في الممنوح من جهة كونـه لا يفقـر المانـح ولا ينقـص خزائنه كثـرة المنح، بل هو الشيء الذي يشعر بالغنى عندما يمنح.

الحب شفرة الفطرة الإنسانية

والمحصل عليه هو ما تحتاج إليه الإنسانية حقيقة وهو الحب، فـ"الحب" يشعر بوجود الآخر. يلمس ذلك في عالم صغير أو علاقـة مصغرة بين زوج وزوجة، أو بين الأب وأبنائه، أو الأم وأولادها، لكن هذه الصورة تنطبق حتى على ما هو أوسع من ذلك كالمجتمع المحلي أو المجتمع الدولي.

صحيح أن علاقة المحبة التي تنشأ بين الزوج وزوجته أو الأم وأولادها، هي أقوى وأمتن من تلك التي يفترض نشوءها بيـن أفـراد المجتمع المحلي أو أفـراد المجتمع الدولي، لكن المقصود هنا هو ذلك الإطار الدلالي المحيط بقيمة "الحب"، الـذي يسـتقبل ويوزع -في الآن نفسـه- عـدداً لا يحصى من المعاني التي للحب فيها دور أساسي كالرحمة والعطف والود والانسـجام والتآلـف والتفاهم، والتفهم والاحتـرام والتقدير، والإعجاب والعفو والعدل، والتسـامح واللين والرأفة والإيثار إلـى مـا لا نهاية من المعاني النبيلة والقيم الأخلاقية السـامية، يحفل بها المسـتعمل اللغوي في أغلب الثقافات، وفي أغلب اللغـات، حتـى لا نقـول كل اللغات، والسـر فـي ذلك هو أن "الحـب" وسـيط تواصلي، يتوفر على شـفرة دقيقة جدا ينبغي البحث عنها في أصل الفطرة الإنسانية.

الشـاهد هـو أن "الحـب" ليـس مجرد شـعور، بل شـفرة تواصليـة، انطلاقا من القواعد التي نـود التعبير عنها وإبلاغها أو بسـطها للآخر. فهو نموذج سـلوكي موجود بالقوة باعتباره سلوكا وباعتباره معرفة.

والمنهـج القرآنـي، ومـن خلاله السـيرة النبويـة التي هي القرآن المطبق، درجا على التعامل مع الإنسان، برغبة حقيقية فـي تخليصه مـن أدران الالتصـاق بـالأرض والانكباب على الوجه والتيه دون هدف محدد ولا غاية.

وخلاصة الكلام، إن الإنسـانية مطالبة بالبحث عن عناصر هذا المشـترك الإنسـاني في قضية الحب، وإن كنت أعتقد أن القرآن الكريم والسنة النبوية قد جمعا تلك العناصر كلها وهي تنتظر من يلتقطها. ■

(*) جامعة شعيب الدكالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الجديدة / المغرب.

المصادر

(1) التـلال الزمردية نحو حيـاة القلب والروح، لمحمد فتح الله كولن، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

(2) لسان العرب المحيط، لابن منظور، إعداد وتصنيف: يوسف خياط، دار لسان العرب، مادة: "كره". وانظر ترتيب القاموس المحيط، على طريقة المصباح المنير وأسـاس البلاغة، تصنيف: الطاهر أحمـد الزاوي، دار الفكر ط:٣.

الرابطة بين الأم وطفلها

د. حسن أيدنلي *

إن بين الأم والولد رابطة بيولوجية وروحية يبدأ تشكلها منذ بداية تشكل الجنين، وذلك نتيجة لتجلي الرحمة الإلهية. وهذه الرابطة تنطوي في طبيعتها على أمور تهم الطفل مثل: عاطفة الأمومة والشفقة والمحبة والعطف والتبني والتضحية... فالخالق الجليل تبارك وتعالى حينما يُعدّ الجنين ليأخذ طريقه إلى هذا العالم، يهيئ له الأم الرؤوم التي ستقوم برعايته وحمايته. ففي رحم الأم نوع من الهرمونات تُفرز جراء الحمل. وكلما اقترب موعد الولادة زادت نسبة إفراز هذه الهرمونات مما يزيد لدى الأم مشاعر الأمومة، وبالتالي تقوم الأم بانتظار موعد قدوم الجنين. وبهذا تحب الأم الطفلَ الذي تحمله، وتنتظر ولادته بفارغ الصبر، كما تدعو الله لأن يكون مولودها متمتعاً بالصلاح والصحة العافية. فالأم سعيدة بمولودها، ولن تُسئمها تغذيته وحاجاته وتلبيتها، بل -على العكس- فهي تشعر بالسعادة الغامرة.

وتوجد بين الطفل والأم رابطة رائعة جدا، حيث إن الطفل بفضل هذه الرابطة يستطيع أن يميز أمه من بين مئات النساء، ويمكن أن يهدأ على صوت أمه من بين أصوات عشرات النساء. والأمهات بدورهن تشعرن بنوع حاجة أطفالهن من شكل بكائهم وما يطلقون من أصوات. وكذلك الأصوات التي يطلقها الأطفال حينما يجوعون أو يخافون أو يتوجعون تؤدي إلى ردات أفعال مختلفة لدى أمهاتهم.

وباختصار إن الرابطة الفطرية التلقائية التي تحصل بين الأمهات وأولادهن، تقوم بدور جسر يمتد من المرحلة الجنينية إلى الحياة العادية، وعبر هذه الوسيلة يتعرف الطفل على الأسرة والبيئة والحياة، كما أن إنشاء هذا الجسر بإتقان وإحكام وفي الوقت المناسب يحظى بأهمية بالغة.

وللحصول على رابطة وعلاقة صحية لابد أن يكون هناك من يحمل بين جوانحه عواطف الأمومة ومشاعرها، ومن جانب آخر لابد لمن يقوم برعاية الطفل سواء أكان أماً أو غيرها، أن يتقبله ويحبه ويقدّره ولا يألو جهداً في القيام بأي تضحية في سبيل إسعاده. وكاستجابة لمشاعر الأمومة ينمو لدى الطفل أحاسيس مقابلة.

الأهم هو نوعية العلاقة

ولابد من التنبيه إلى أن العلاقة السليمة المثالية بين الأم والطفل لا ينبغي أن تفهم على أنها عناية الأم بالطفل على مدار الساعة وقضاؤها كل وقتها معه، بل المطلوب هو قضاء الأم وقتها معه في مستوى من النوعية والكفاية. فالطفل يحس بمن يعتني به، ويشعر بالسعادة والأمان حينما يحس بوجوده عنده، وبذلك يتذوق طعم الحياة وحلاوتها. وينعكس هذا إيجابياً على شتى جوانبه وقدراته الذهنية والجسمية والعكس صحيح؛ فالإهمال في العناية به يؤثر سلبياً على قدراته الذهنية والاجتماعية واللغوية والعضلية.

وحينما تكون عاطفة الأمومة ضعيفة لدى الأم فمن المحتمل أن تؤدي ذلك إلى خلل في تلك الرابطة. وبالتالي إذا كانت العناية غير كافية أو على مضض ولم تلبَّ حاجات الطفل ورغباته، فلن يتكوَّن هناك رابطة قوية وسليمة.

فالخالق العظيم برحمته اللانهائية يودع في قلب أم الطفل العاجز الفقير الذي يحتاج إلى المحبة والأمان مشاعر تحقق له ذلك. فلا جرم أن هناك رباً واحداً ذا قدرة متفردة لانهائية وبيده مقاليد كل شيء يهيئ الأم ويُعدّها إعداداً نفسياً وجسدياً، يربي الجنين وهو في رحم أمه ويُحقق نموه على أكمل وجه وأحسنه. ولولا ذلك لما كانت الأم مستعدة في مرحلة نمو الطفل، ولمات هذا المخلوق الضعيف في وقت قصير.

ولو كانت الحياة -كما يزعم أنصار نظرية التطور- عبارة عن مرحلة بيولوجية فقط لما استطاع الإنسان أن يواصل نسله؛ فإن ديمومة المرحلة البيولوجية إنما تمكن بتبني الأم لطفلها نفسيا أيضاً. فالتوافق بين المرحلة البيولوجية والنفسية بطريق الصدفة أمر غير قابل للاحتمال. فهذه الظواهر التي تتحقق بشكل منسق ومنظم تُظهر على أوضح وجه أنه ليس في خَلق الإنسان محل للصدفة والعشوائية.

كيف تختل الرابطة بين الأم والجنين

إن الرابطة التي تتأسس بين الأم والطفل تكون وسيلة إلى نمو الطفل متمتعاً بالصحة الجسمية والنفسية؛ وبالمقابل إذا لم تتشكل الرابطة بينهما بشكل سليم، يكون هناك اختلال في الترابط بينهما، وهذه الأعراض يكثر ظهورها في الأطفال الذين لم يتلقوا عناية جيدة وتعرضوا للإهمال، والذين تنقلوا بين أيدي حاضنات مختلفة.

وعلى الأخص إذا كانت الأم تلبي الحاجات الضرورية للطفل ولكنها تهمل تبادل المشاعر معه جراء إرهاقها أو توترها، فإنه سيكون هناك نقص في التواصل، وبالتالي فالطفل الذي يرى أمامه من لا يقابل بسمته بالبسمة، ولا يدخل معه في جو غامر بالمشاعر الطيبة، بل يرى أمامه شخصاً مرهَقاً وعصبياً ومتوتراً، فإنه يبدأ بالصراخ والتوتر ويبدي حركات عصبية بدلا من إطلاق الضحكات لمن حوله.

والأطفال الذين يتربون في مثل هذه الأجواء يعانون في المستقبل من حالة من الفصام تَحُول دون تلقي الرسائل الاجتماعية، مما يجعلهم غير واثقين من أنفسهم وقلقين وغير قادرين على اتخاذ القرارات.

ومن هذا المنطلق ينصح الخبراء الأمهاتِ العاملات بأن تأخذن الإجازة عن عملهن وبالأخص في السن الأول للطفل حتى يتفرغن لأطفالهن في جو خال من الإرهاق وبحالة نفسية جيدة. وإن أي اختلال في الرابطة التي بين الأم وولدها من شأنها أن تتسبب في نهاية الأمر إلى العديد من المشاكل النفسية؛ فالطفل الذي يفتح عينيه على الحياة محروما ممن يرعاه بعطف وحنان قد يكون في نهاية المطاف عدائيا، وهذا العداء يؤدي به إلى القيام بالعنف تجاه الناس والحياة.

والطفل الذي لم ير من الآخرين المحبة والرحمة قد لا يستطيع أن يمنحهما للآخرين. والذين يتربون على هذا الطراز من المحتمل أن يتعرضوا أكثر من غيرهم للمشاكل النفسية والاجتماعية، مثل الاكتئاب والقلق والخلل في الشخصية والقيام بأعمال العنف.

وبالمقابل فالأم التي تبالغ في الحفاظ على أولادها أو تكثر من التدخل في كل صغيرة وكبيرة منه أو تبدي نوعا من الارتباك في تصرفاتها، من المحتمل أن تعاني من إنشاء علاقة صحية مع أولادها؛ حيث إن الولد يحتاج لتطور شخصيته إلى فترات الفراق من أمه؛ وإلا فإنه لن ينفصل عنها بصورة صحية، وبالتالي سيتربى خجولا ضعيف الثقة بنفسه ومتوقعا -على الدوام- الدعمَ من الآخرين. والارتباك الذي يبدو على تصرفات الأم يؤدي إلى زيادة الارتباك في الطفل، وخللٍ في ردات فعله، ويعوق التطور في تصرفاته الصحية.

ومن الحالات الحرجة التي قد تؤدي إلى نتائج سلبية على الطفل، الزيادة من تغيير الحاضنات وإكثار الأم من مشاهدة التلفاز، وعدم قدرة الأم على الاهتمام المركّز بولدها جراء خلل في حالاتها ومشاعرها.

الولادة القيصرية

ومن سلبيات الولادة القيصرية أن الطفل أول ما يفتح عينيه على الحياة يكون ارتباطه مع أمه منقطعاً، في حين أن أهم شيء بالنسبة له في هذه الحالة هو التماسّ مع أمه، لأن الأم قد تصحو متأخرا بتأخير المواد المخدرة، وقد تجد صعوبة في احتضان طفلها وإرضاعه ورعايته بسبب العملية الجراحية التي خضعت لها.

والحاصل أن تكوّن رابطة من هذا النوع بين الأم وطفلها من أهم مراحل حياة الإنسان وأخطرها. وبالتالي فقيام الأمهات والذين يضطلعون بمهمة رعاية الأطفال بدورهم ومهمتهم بشكل صحي وصحيح، له أهمية بالغة في تنشئة أجيال صحيحة.

ومن هذا المنطلق يمكننا أن نفهم بشكل أفضل مغزى الآية القرآنية الكريمة التي تحث على إرضاع الوالدات لأولادهن حولين كاملين، لأن الأولاد الذين يرضعون من أثداء أمهاتهم يكون التواصل بينهم وبين أمهاتهم أقرب، وتكون الرابطة بينهما بصورة أقوى. ففي أثناء الرضاع يكون التماس الجسدي بينهما والتقابل بالعين والتبسم في الوجه وإبداء المحبة والمودة في حالة ذروتها. والطفل أثناء الرضاعة يلبي حاجاته الجسمية والروحية والنفسية في آن واحد.

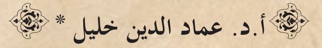
فعلى الآباء والأمهات أن يكونوا على وعي كامل بمدى أهمية إنشاء هذه الرابطة وتقويتها بشكل صحيح وصحي، ويبرمجوا حياتهم العائلية في هذا الإطار، حتى يهيئوا المناخ لقضاء الأطفال مرحلة طفولتهم بشكل مثالي. فكلما كان هذا الجسر الذي يمدونه نحو الحياة مبنياً على أسس وقوائم راسخة وقوية، يستشرف الولدُ المستقبلَ بثقة وأمان. ■



(*) جامعة إسطنبول / تركيا. الترجمة عن التركية: أجير أشيوك.



النُّورسي
والالتزام في الأدب



أ.د. عماد الدين خليل *

لم يشأ "النورسي" وهو يوشك على إنهاء "كلماته"، إلا أن يقف بعض الوقت عند قضية الالتزام في الأدب، وتقديم رؤية مقارنة بين نمطين من الإبداع الأدبي؛ الأدب القرآني والإسلامي عموماً، والأدب الغربي الأجنبي.

وكعادته دائماً ينطلق النورسي من كتاب الله في أسلوبياته ومضامينه على السواء، فيقيس به وعليه معطيات الآخرين صعوداً وهبوطاً.

إنه، أي القرآن الكريم، وبالمنطوق الإحصائي: "الرقم الأساس" الذي تحدّد في ضوء قيمته سائر الأرقام.. وبالمنطوق الفلسفي: "المثل" الذي يرسم السقف الأعلى فيعطي الفرصة للمقارنة مع سائر المعطيات البشرية لتقويم قربها أو بعدها عنه.

في كل المسائل التي عالجها النورسي في رسائله المائة والثلاثين، بما فيها الظاهرة الجمالية، كان القرآن الكريم المرشد والدليل. ولقد سبق وأن درست رؤيته للجمال في "كلماته" عبر ستة فصول ستصدر في كتاب مستقل في وقت لاحق إن شاء الله، يحمل عنوان "الكلمات: رؤية جمالية في فكر النورسي".

وأريد هنا أن أقف لحظات عند مسألة أخرى؛ رؤية النورسي لقضية الالتزام في الأدب، في ضوء مقارنة

شـفافة بين الأدب القرآني وما يتمخض عنه من أدب إسلامي وفق أجناسه كافة، وبين ما يسميه هو الأدب الغربي أو الأجنبي.

ثنائية الشكل والمضمون

وبرؤيـة نافذة لا يكتفي النورسـي بالوقـوف عند "المضمون"، فالمضمون وحده لا يصنع أدباً، ولابد له من التلبّس بجماليات الأسـلوب وتقنياتـه التي تنـزاح بالمعاني اليوميـة الملقاة على قارعـة الطريـق -كمـا يقـول الجاحـظ- باتجاه تعبيـر جمالي يخرج بها عن المياومة والمباشرة، ويمضي بعيداً بقوة الآليات البلاغية، لكي يشـكل عالماً مغايراً. ولذا فإن النورسـي يمنح اهتمامه لجانبي العملية الأدبية شكلاً ومضموناً.

تفرّد الأسلوب القرآني

وعوْداً إلى المدرسـة الأدبية الأولى في تاريخ الأمة الإبداعي، القـرآن الكريم، يشـير النورسـي إلى أن هذا الكتـاب المعجز "أظهـر كمـال السلاسـة والسـلامة والتناسـب والتسـاند فـي بيانـه وجوابـه وخطابـه، ودونك علـم البيان وعلـم المعاني. وفـي القـرآن خاصيـة لا توجد فـي أي كلام آخـر، لأنك إذا سـمعت كلامـاً من أحد فإنـك ترى صاحب الـكلام خلفه أو فيه، فالأسـلوب مرآة الإنسان. أيها السائل المثالي! لقد أردت الإعجاز، وها قد أشـرت إليه! وإن شئت التفصيل فذلك فوق حدّي وطوقي. وقد بيّن كتاب "إشـارات الإعجاز" واحداً من أربعين نوعاً من ذلك الإعجاز، ولم تف مائة صفحة من تفسير لبيان نوع واحد".

مقارنة بين أدبين

بعد هذا التأسـيس الموجز الذي يتصـادى في "الكلمات" من بدئها حتى منتهاها، يمضي النورسي لإجراء مقارنة شاملة بين "أدبين"، الأدب القرآني والإسـلامي الذي ينبثق عنه، والأدب الغربـي. وهو في مقارنته هذه يمسّ إحدى القضايا الأساسـية في الجهد الأدبي: "الالتزام"...

والحديـث عـن الالتزام يرغـم المرء علـى أن يرمي بثقله في اتجاه المضمون، رغم أن مسـاحة ما في "الأسـلوبية" تظل مرتبطـة هي الأخـرى بظاهرة الالتزام، لأنها جزء أساسـي في العمليـة الإبداعيـة التي تنطوي على الشـكل والمضمون معاً، والتي تجعل المعاني تتلبّس -بالضرورة- هذا الشكل دون ذاك. إنه يقول: "لا تبلغ يد الأدب الغربي ذي الأهواء والنزوات والدهاء، شأن أدب القرآن الخالد ذي النور والهدى والشفاء. إذ الحالـة التـي ترضـي الأذواق الرفيعة للكامليـن من الناس وتطمئنهم، لا تسـرّ أصحاب الأهـواء الصبيانية وذوي الطبائع السفيهة ولا تسلّيهم، فبناء على هذه الحكمة، فإن ذوقاً سفيهاً سـافلاً، ترعرع في حمأة الشـهوة والنفسـانية لا يستلذ بالذوق الروحـي، ولا يعرفـه أصلاً. فـالأدب الحاضر، المترشـح من أدب أوربـا، عاجـز عن رؤية ما في القـرآن الكريم من لطائف عالية ومزايا سامية من خلال نظرته الروائية، بل هو عاجز عن تذوّقها، لذا لا يستطيع أن يجعل معياره محكاً له".

الغوص في الشهوة والاعتقال في المنظور

ويمضـي النورسـي للحديـث عن الميادين التي يجـول فيها الأدب، لا يحيـد عنهـا، وهي في رأيه ثلاثة: ميدان الحماسـة والشـهامة، ميدان الحسـن والعشـق، ميـدان تصويـر الحقيقة والواقـع. وكأنـه يلمّ في هذه الكلمات الموجزة نمطي الشـعر الأساسـيين: الملحمي والغنائي، ويجمع المذاهب التي تنتمي إليها الرواية: كلاسـيكية ورومانسـية وواقعية، ثم هو بعد ذلك يبدأ المقارنة: "فالأدب الأجنبي في ميدان الحماسـة، لا ينشد الحق، بل يلقن شـعور الافتتان بالقوة بتمجيده صور الظالمين وطغيانهـم. وفـي ميدان الحسـن والعشـق، لا يعرف العشـق الحقيقي، بل يفرز ذوقاً شـهوياً عارماً في النفوس. وفي ميدان تصوير الحقيقة والواقع، لا ينظر إلى الكائنات على أنها صنعة إلهيـة، ولا يراهـا صبغـة رحمانيـة، بل يحصر همـه في زاوية الطبيعـة، ويصوّر الحقيقة في ضوئهـا، ولا يقدر الفكاك منها. لذا يكون تلقينه عشق الطبيعة، وتأليه المادة، حتى يمكن حبها فـي قـرارة القلب فلا ينجـو المرء منه بسـهولة". وكأنه يشـير بذلك إلـى المذاهب التي أعقبت الواقعيـة وتجاوزتها، بغض النظر عن موقعها في الزمن: السـريالية، والواقعية الاشتراكية، والطبيعيـة، حيـث الالتصاق بالمـادة، والغوص في الشـهوة، والاعتقال في المنظور، وكأنها الآلهة التي لا رادّ لقضائها.

أدب مشـوب بالسـفه، كمـا يقـول: "لا يغنـي شـيئاً عـن اضطرابـات الـروح وقلقها الناشـئة من الضلالة والـواردة منه أيضاً، ولربما "يهيجها" وينميها، وفي حسبانه أنه قد وجد حلاً، وكأنه العلاج الوحيد".

الضياع، الاكتئاب، اللاجدوى

لـم يفعل الأدب الغربي، وبخاصة فـي معطياته الأكثر حداثة،

أيما شيء لعلاج اضطرابات الروح التي يعاني منها الإنسان المعاصر والتي قادته، ووفق متوالية هندسية تؤذن بالويل، إلى أن يهرب إلى المخدرات والمغيّبات بأشكالها كافة، وإلى الشذوذ بأنماطه كافة.. ثم إلى الخروج من الحياة بالانتحار الذي تتزايد معدلاته يوماً بعد يوم.. على العكس، كان الأدب بمواصفاته تلك، واحداً من أهم الأسباب وراء هذا الإحساس بالضياع والاكتئاب واللاجدوى، وعبثية الحياة، وغموض المصير.

الثالوث المشؤوم

ووفق هذا المنظور يسمي النورسي الرواية الغربية بـ"الحيّ الميت" والسينما بـ"الأموات المتحركة" والمسرح بـ"خشبة تبعث فيها الأشباح وتخرج سراعاً من تلك المقبرة الواسعة المسماة بالماضي".. "هذه هي أنواع رواياته. وأنى للميت أن يهب الحياة؟ وبلا خجل ولا حياء! وضع الأدب الأجنبي لساناً كاذباً في فم البشر، وركب عيناً فاسقة في وجه الإنسان وألبس الدنيا فستان راقصة ساقطة".

والذي يطلع جيداً على الأدب الغربي المعاصر في أجناسه كافة، بل في تنظيراته وتطبيقاته النقدية، يرى بأم عينيه وبوضوح لا تحجبه الأستار، كيف يتعرّى الإنسان وينزل إلى دركات البهيمية العمياء، وكيف تغتال الضوابط الخلقية وتذبح القيم الإنسانية ويغيّب العقل، وكيف تسحب يد الله سبحانه -وحاشاه- عن الحضور في صيرورة العالم، بل كيف يقتل الإنسان نفسه حيث لا يتبقى ثمة إلا الثالوث المشؤوم: المادة والطبيعة والشهوة.

إن الأدب القرآني لا يحرك ساكن الهوى، لا يثيره، بل يمنح الإنسان الشعور بنشدان الحق وحبه، والافتتان بالحسن المجرد، وتذوق عشق الجمال، والشوق إلى محبة الحقيقة. فهو لا ينظر إلى الكائنات من زاوية الطبيعة، بل يذكرها صنعة إلهية، صبغة رحمانية، فيلقن نور معرفة الصانع، ويبين آياته في كل شيء.

من أجل ذلك، يتساءل النورسي، من أين سيعرف هذا الأدب (الغربي) الحسن المجرد؟ فهو حتى لو أراد أن يُري القارئَ الشمسَ، فإنه يذكره بممثلة شقراء حسناء. وهو في الظاهر يقول: "السفاهة عاقبتها وخيمة لا تليق بالإنسان، ثم يبيّن نتائجها المضرة، إلا أنه يصوّرها تصويراً مثيراً إلى حدّ يسيل منه اللعاب، ويفلت منه زمام العقل، إذ يضرم في الشهوات ويهيج النزوات حتى لا يعود الشعور ينقاد لشيء".

فما الذي يقدمه أدب القرآن؟

في مقابل هذا كلّه ما الذي يقدمه ما يسميه النورسي بـ"أدب القرآن الكريم" الذي انبثقت عنه تيارات الأدب الإسلامي فملأت فضاءات الزمن والمكان، ثم جاءت حركة الأدب الإسلامي المعاصر لكي تمضي بالشوط حتى نهايته، فتحاول أن تحقق التوازن الضائع بين أدب الانحلال وأدب البناء، أدب الرذيلة وأدب الطهر، أدب الشهوات وأدب العفاف، أدب الشيطان وأدب الإنسان؟!

إن هذا الأدب القرآني، يقول النورسي: "لا يحرك ساكن الهوى، لا يثيره، بل يمنح الإنسان الشعور بنشدان الحق وحبه، والافتتان بالحسن المجرد، وتذوّق عشق الجمال، والشوق إلى محبة الحقيقة.. ولا يخدع أبداً. فهو لا ينظر إلى الكائنات من زاوية الطبيعة، بل يذكرها صنعة إلهية، صبغة رحمانية، دون أن يحيّر العقول، فيلقن نور معرفة الصانع ويبين آياته في كل شيء".

أحزان اليتامى وأحزان العشّاق!

ويعود للمقارنة بين الأدبين "فكلاهما يورثان حزناً مؤثراً، إلا أنهما لا يتشابهان؛ فما يورثه أدب الغرب هو حزن مهموم، ناشئ من فقدان الأحباب وفقدان المالك، ولا يقدر على منح حزن رفيع سامٍ. إذ استلهام الشعور من طبيعة صمّاء وقوة عمياء، يملأه بالآلام والهموم، حتى يغدو العالم مليئاً بالأحزان، ويلقى الإنسان وسط أجانب وغرباء دون أن يكون له حامٍ ولا مالك، فيظل في مأتمه الدائم، وهكذا تنطفئ أمامه الآمال. فهذا الشعور المليء بالأحزان والآلام يهيمن على كيان الإنسان، فيسوقه إلى الضلال وإلى الإلحاد وإلى إنكار الخالق، حتى يصعب عليه العودة إلى الصواب، بل قد لا يعود أصلاً. أما أدب القرآن الكريم فإنه يمنح حزناً سامياً علوياً، ذلك هو حزن العاشق لا حزن اليتيم. هذا الحزن نابع من فراق الأحباب لا من فقدانهم".

إنه الحزن الكبير -إذا صحّ التعبير- الحزن العالي المبدع الذي يذكرنا ببيت أمير الشعراء أحمد شوقي:

تعلّمت بالألم العبقري وأنبغ ما في الحياة الألم

الألم الذي يقدم التعاليم ويفجر الإبداع ويجعل من الإنسان كائناً حساساً يكاد يذوب فاصل الألم، كما يسميه "كولن ولسون"، بينه وبين العالم، فيتأثر ويهتز وينفعل بأقل المؤثرات درجة، لكي ما يلبث أن يخرج على الناس بروائع فنه وإبداعه.

بين الصنعة الإلهية والطبيعة العمياء

الأدب القرآني "ينظر إلى الكائنات على أنها صنعة إلهية، رحيمة، بصيرة، بدلاً من طبيعة عمياء، بل لا يذكرها أصلاً، وإنما يبين القدرة الإلهية الحكيمة ذات العناية الشاملة بدلاً من قوة عمياء"، على الخلاف تماماً من رؤية الواقعيين والطبيعيين، بل وحتى الطليعيين (العبثيين) المعتمة، فهي "لا تلبس الكائنات صورة مأتم موحشة، بل تتحول أمام ناظريه إلى جماعة متحابة، إذ في كل زاوية تجاوب وفي كل جانب تحابب وفي كل ناحية تآنس، لا كدر وضيق. هذا هو شأن الحزن لدى العاشقين. وسط هذا المجلس يستلهم الإنسان شعوراً سامياً لا حزناً يضيق معه الصدر".

فماذا عن الشوق والفرح؟

هذا عن الحزن.. فماذا عن الشوق والفرح؟ يجيب النورسي: "الأدبان كلاهما يعطيان شوقاً وفرحاً. فالشوق الذي يعطيه ذلك الأدب الأجنبي، شوق يهيج النفس ويبسط الهوس، دون أن يمنح الروح شيئاً من الفرح والسرور. بينما الشوق الذي يهبه القرآن الكريم، شوق تهتز له جنبات الروح فتعرج به إلى المعالي".

إن النورسي هنا يوغل في تحليل البعد النفسي (السايكولوجي) للظاهرة الجمالية، وهو بصدد المقارنة بين الحالتين الأجنبية والإسلامية. ولا ينسى أن يقف لحظات عند "الموسيقى" باعتبارها معطى جمالياً يرتبط أشد الارتباط بالخبرة النفسية، وبالشوق الذي تهتز له جنبات الروح فتعرج به إلى المعالي.. ها هنا يكمن السرّ "فقد نهت الشريعة الغراء عن اللهو وما يلهي، فحرمت بعض آلات اللهو وأباحت أخرى؛ بمعنى أن الآلة التي تؤثر تأثيراً حزيناً حزناً قرآنياً وشوقاً تنزيلياً لا تضر، بينما إن أثّرت في الإنسان تأثيراً يتيماً وهيجت شوقاً نفسانياً شهوياً، تحرم الآلة. تتبدل حسب الأشخاص هذه الحالة، والناس ليسوا سواء".

وكلنا نعرف الأصوات والألحان التي تجعلنا نخاطب السماوات والنجوم، وتلك التي تهبط بنا إلى حمأة الدركات السفلى، والفارق كبير كبير.

مفارقة يجب تجاوزها

لكن ما يؤسف له، ونحن نقارن بين الأدبين الغربي والإيماني، أن أوّلهما شقّ طريقه إلى ملايين الناس وقدر على التأثير فيهم، بينما انحسر الثاني في دائرة قلّة من المعنيين، رغم أن أولهما في معظم مساحاته يغري بالفجور، بينما يقود الثاني قرّاءه إلى الصراط ويمنحهم في الوقت نفسه المتعة والتوحد والفرح والرضا.

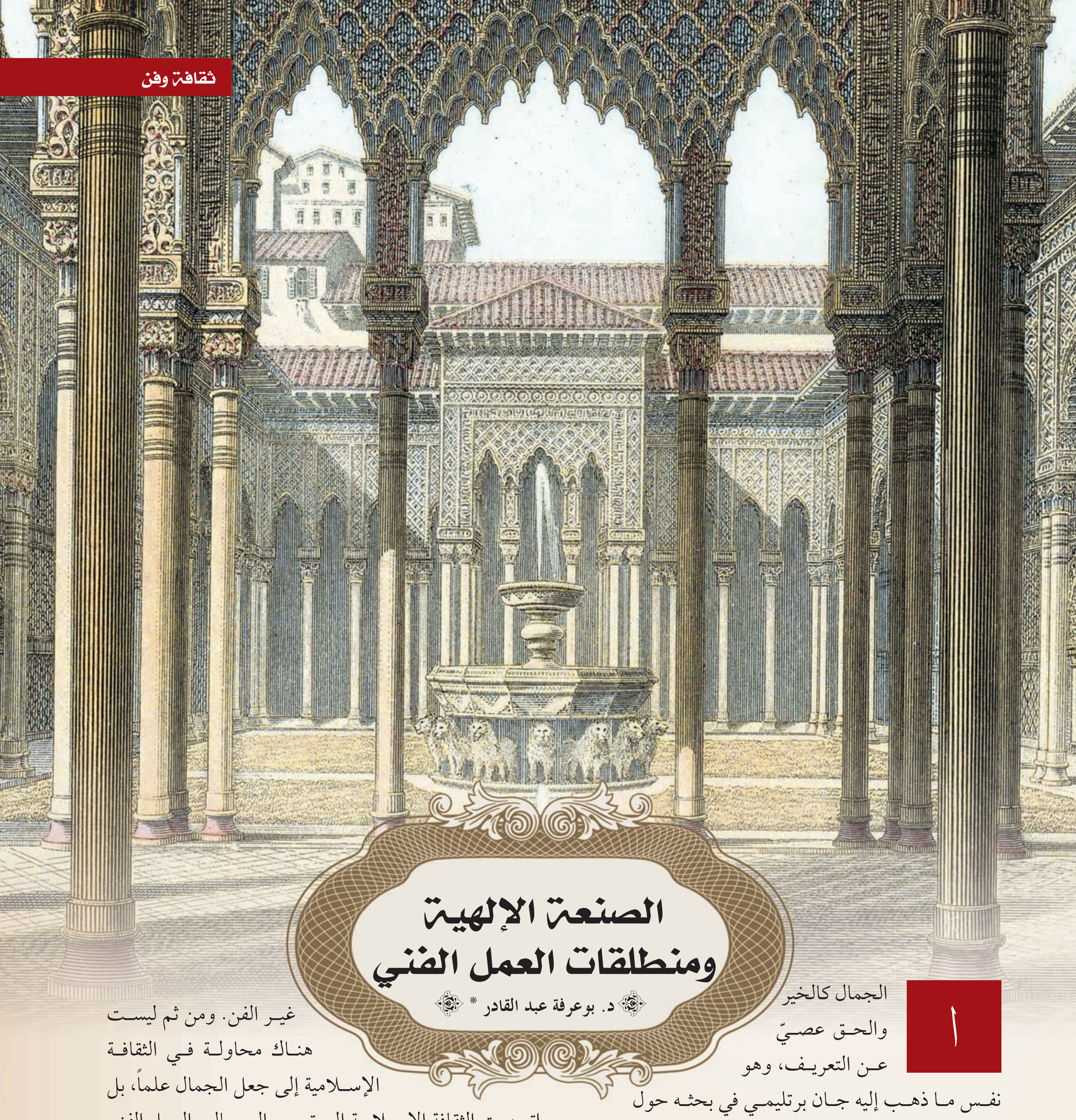
والسبب واضح بيّن لكل ذي عينين: إن الأدب الغربي عرف كيف يوظف أرقى التقنيات والأسلوبيات الفنية وأكثرها إحكاماً، لرفع خطابه في مواجهة الناس، فكسب الجولة، رغم ما تنطوي عليه مضامينه من إبحار ضد الإنسان وهموم الإنسان وخلاص الإنسان وتوحّد الإنسان، بينما غفل الأدب الإسلامي، أو لم يُعطِ -بعبارة أدق- الاهتمام الكافي للتقنيات والأسلوبيات، وبخاصة في مجال القصة والرواية والمسرحية والسيرة الذاتية، فلم يوفّق -إلا في حالات قليلة- في إيصال خطابه إلى أوسع الجماهير وكهربة أوصالها وكسب إعجابها.

والطريق ليس مقفلاً ولا مسدوداً، إنما هو مفتوح على مصراعيه لكل الذين يحملون همّ الأدب الإسلامي، وفي أن يكون أدباً عالمياً. ذلك بأن يرموا بثقلهم صوب تحسين أدوات عملهم الفنية والجمالية. وحينذاك وبالالتحام مع المضامين العليا للرؤية الإسلامية، سيجد العالم نفسه قبالة أدب يليق بمكانة الإنسان في العالم، ويعد بالكثير. ■

(*) كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.

المصادر

(١) الكلمات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.
(٢) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، لبديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.



الصنعة الإلهية ومنطلقات العمل الفني

د. بوعرفة عبد القادر *

ا

الجمال كالخير والحق عصيّ عن التعريف، وهو نفس ما ذهب إليه جان برتليمي في بحثه حول علم الجمال حين قال: "إن نحن رجعنا إلى قدامى الفلاسفة لعلمنا أن الجميل، شأنه شأن الحق والخير، يعيش فوق العقل والمنطق والعمل، ولهذا فالجميل لا يقبل التعريف... والجمال يفهم من خلال الأشياء الجميلة."

كما أن هناك مسألة بالغة الأهمية تكمن في التطابق الحاصل بين مفهوم الجمال والفن؛ فالفن ليس هو الجمال بل هو متضمن له، لكونه أشمل منه في المفهوم، لكن الجمال غير الفن. ومن ثم ليست هناك محاولة في الثقافة الإسلامية إلى جعل الجمال علماً، بل اتجهت الثقافة الإسلامية إلى تحرير الجمال والعمل الفني مما يحد الخيال أصلا، لأن الفن يرتبط بموضوعات غير قابلة للتحديد أصلا، ومن ثم يجب أن يكون متعالياً عن الفقه والقانون والقواعد، ولعلنا نوجه السؤال التالي: ما منطلقات الفن الإسلامي؟

كل ما في الكون موضوع الجمال

لقد كان أرسطو سبّاقا في القول بشمولية موضوع الجمال:

"الجمال في الكائن الحي والشيء المكون من أجزاء يتولد من عدم التناهي في الكبر والتناهي في الصغر". ومعنى ذلك أن كل ما هو موجود في الوجود يحمل إمكانية أن يكون موضوعَ الجمال. والمسلم باعتباره يرد كل شيء لله من حيث الخلق، يعتقد أن كل ما خلق الله وما سيخلقه هو موضوع للجمال: "كل شيء جميل" وقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾(السجدة:٧)، وبالتالي يصبح حتى المنبوذ والقبيح في عرف واعتقاد الناس موضوعاً للجمال. والمثال على ذلك أن القرآن نبه في كثير من النصوص إلى ضرورة تأمل بعض الموضوعات التي إن طرحت تبدو للسفيه ساذجة ومبتذلة، ولا تحمل قيماً جمالية، أو لا تصلح لأن تكون موضوعاً للعمل الفني أصلا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾(البقرة:٢٦).

فالعمل الفني مقصد من مقاصد الشريعة السمحاء، وجوب وجوده مصلحة إنسانية؛ فبه نُقوّم النفوس ونهذب طبائعها، ونُجلي عنها ما يكدرها من غموم وهموم، فحاجتنا إليه كحاجة الإنسان إلى الخضرة والزرقة، والعطر والشذى. فالعمل الفني من منطلق كونه يدخل ضمن مقصد التحسينات يكون حسب أبي حامد الغزالي: "ومثال الضروري من النعم: الماء والغذاء. ومثال الحاجة: الدواء واللحم والفواكه. ومثال المزايا الزوائد: خضرة الأشجار وحسن أشكال الأنوار والأزهار ولذائذ الفواكه والأطعمة التي لا تنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة".

ومنه فكل ما خلق الله وما سيخلق لبقية الخلق قبل وجوب نداء الحق، يصبح موضوعاً للجمال، وبالتالي ليس هناك عمل فني رائع بموضوعه، بل هناك عمل فني رائع بحسب فهمنا وإدراكنا لمقصده.

منطلق الجمال

الله ذو الجلال هو منطلق الجمال وموضوعه الأول، لأن الله هو الجمال وخالق الجمال، ثم نفسه هو الجلال أسمى مراتب الجمال، ومن ثم يصبح الله هو الكمال وهو غاية العمل الجمالي. فالعمل الفني هو محاولة الوصول إلى كمال الشيء، ومن ثم يكون الفنان قد حاول أن يتمثل صفة من صفات الله وهي الخلق والإبداع، لأنه يشعر أن كل ما هو موجود وما ليس بموجود مرده إلى الجليل والجميل، أي إلى الله ذي الجلال.

ومن ثم فنحن نجد أن العمل الفني في الإسلام يرتبط بالله المبدع. ولعل الفنان المسلم أراد أن يجعل لنفسه الكوجيتو التالي: "أنا أبدع، إذن أنا موجود" ولقد ربط كبار المتصوفة العمل الفني بالله كذات متعالية عن الإدراك الحسي، فالجمال والجلال آية من آياته. ولعل هذا ما دفع الفيلسوف "إ. كانط" إلى تأليف رسالة حول "الجميل والجليل".

ومن ثنائية الجمال والجلال نلاحظ أن العمل الفني في الإسلام لا يخرج عن مدار نقطتي جذب، أو بمعنى آخر أن الإبداع الفني يقع بين حدي الجمال والجلال. ونقصد من ذلك أن الجمال يفيد الرقة والروعة: الأنثى -الدنيا- الجنة، والجلال يفيد الشدة والرهبة: الفحولة -الآخرة- النار.

إن كل عمل فني في الإسلام هو محاولة إبراز الجانب الجميل أو الجليل في الأشياء أو كلاهما معاً كما فعل المعري في رسالة الغفران، أو ابن عربي في ترجمان الأشواق.

وإذا كانت الشريعة الإسلامية حرمت على الفنان تخيل الله كصور مادية من مبدأ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(الشورى:١١)، فإنها أباحت له استجلاء الله في أياته ومخلوقاته. فالخط العربي تمثل لله الأبدي، كما أن في الكلمة والمعنى حضورا لروحه وجلاله.

وعي معنى الخلق الإلهي

إن الفنان في المنظومة الإسلامية أكثر الناس شعورا بحضور الذات الإلهية في الأشياء، لأنه وهو يمارس عملية الإبداع يدرك أن ما يقوم به في أغلب الأحيان هو مجرد محاكاة -ليس بالمعنى الإغريقي- لما أبدعه الله ﷻ، وبالتالي فنحن نعي من خلال العمل الفني أسرار الموضوع؛ فكل ما هو مخلوق يحمل دلائل الجمال في ذاته، وبالتالي نحن ندرك الله في الجمالية الخالصة لكل موضوع. ومن ثم فلقد اتجه العمل الفني في التراث الإسلامي إلى إبراز الله ﷻ في كل عمل فني بدءاً من الخط إلى العمارة والزخرفة. والدليل على ذلك ارتباط أكثر الأعمال الفنية بموضوعين رئيسين "المصحف" و"المسجد"، والغاية إبراز معنى الجلال والجمال في أكبر معالم الإسلام. ولقد حاول "بايير" أن يقرب هذه القاعدة في قوله: "كل عمل فني نعي من خلاله كيفية جماليته الخاصة".

فالعمل الفني في الإسلام دوما يُتبع بمقولة جمالية "ما شاء الله"، وهي تدل على التعجب الذي أخذ باللب، فأدهش الحواس وداعب الأذواق. إنها مقولة تعكس وعي الذات

بعظمة العمل الإنساني في محاكاة ما صنعه الله وأبدعه. وبالرغم من إيمان الفرد أن ما صنعه الإنسان وأبدعه لا يرتقي أبدا إلى إبداع الله ﷻ.

إن الفن الإسلامي يترفع عن المحاكاة الطبيعية، ويتجه نحو المحاكاة الغائية. ونقصد أن الفن ليس هو محاكاة الطبيعة ونسخها كما هي، بل المحاكاة أنك تحاول محاكاة فعل الله ليس كما هو لأنه يستحيل، بل محاكاته من حيث الوصول إلى غاية وهي اكتشاف الله المبدع في أعمالنا.

العمل الفني إدراك الوجود لما أنت عليه

قلنا سابقا إن العمل الفني في التراث الإسلامي اعتبر كتجربة فردية، وبالتالي فهي غير مرتبطة بالتحديد الفقهي إلا في طريقة الإبلاغ والتقديم. ومنها نلاحظ أن العمل الفني هو الذي كان يبرز التجربة الوجودية للفرد، لأن العمل الفني هو الذي يعكس إدراك الذات للموضوع؛ وإدراكها للموضوع ليس وفق مبدأ ما ينبغي أن يكون (المشروط)، ولكن وفق ما هي عليه حالة الذات في تلك اللحظات الإبداعية (التحرر). لا نعني بذلك وجود حالة إدراك خالصة للموضوع، ولكن نقصد من ذلك أن الذات تترجم أحوالها الشعورية في متون العمل الفني. فلو كانت النفس في حالة شعورية منبسطة فالموضوع يترجم على أساس أنه جميل ورائع حتى وإن كان الموضوع مخالفا لما هو مألوف والعكس صحيح. ولقد عبر عبد القاهر الجرجاني عن هذه القاعدة في قوله: "اقرأ الشعر وراقب نفسك. فإذا رأيتَك قد ارتحت واهتززت (طربا) واستحسنت، فانظر إلى حركات الأريحة مهما كانت وعندما ظهرت".

ولقد أكد علم النفس المعاصر هذه الحقيقة، فـ"فرويد" استطاع أن يدرك من خلال لوحة "موسى" على جدران الكنيسة الحالة النفسية للفنان الإيطالي.

إن العمل الفني في الإسلام هو في الحقيقة تجسيد لأنطولوجية الذات المنقسمة بين حالين: فإما "كن جميلا تر الوجود جميلا" أو "كن عليلا تر الوجود عليلا".

القصدية

لا يخلو أي عمل فني من وجود ظاهرة القصدية أو الغرضية. ونقصد أن كل عمل فني في الإسلام مرتبط بهدف وقصد، وأن الفنان سواء أدركنا قصده أو لم ندركه، هو في حقيقة الأمر يحاول من خلال عمله أن يبرز علاقة ذاته بموضوع عمله، سواء كان القصد أن نعبر عن ما نفهمه أو ما لا نفهمه. وقصدية الفنان المسلم تتعلق في أغلب الأحيان في التعبير عن الموضوعات غير القابلة للفهم، فالزخرفة والمنمنمات والخط هي قمة التجريد في التراث الإسلامي، وبالتالي هي محاولة معرفة عالَم غير قابل للإدراك الحسي، مثل ما يجد المفسر نفسه أمام بعض آيات القرآن ﴿حم﴾، ﴿الم﴾، ﴿ن﴾، ﴿ص﴾..

والفارابي يعتقد أن العقل الفعال من حيث هو قوة مدركة، يجنح إلى محاولة فهم الأشياء وصورها، ليس فقط من حيث كونها أشياء مجردة، بل من حيث كونها أشياء ترتبط باللذة والغبطة والجمال. وهنا تكمن القصدية في العمل الفني: "ومع ذلك فإن الثواني والعقل الفعال، ليس واحد منها يكتفي في أن يحصل له بهاء الوجود وزينته، ولا الغبطة والالتذاذ والجمال بأن يقتصر على أن يعقل ذاته وحدها، لكن يحتاج في ذلك إلى أن يعقل في ذاته موجوداً آخر أكمل منه وأبهى (أي الله ﷻ)".

الجمال ملكة طبيعية

أغلب من تحدث عن الجمال في العالم الإسلامي، نظر إليه على أنه ملكة طبيعية في النفس البشرية، غير أنها متعالية بالعقل والنظر. وبالتالي فالعمل الفني نابع من ذات الإنسان التي تستشعر الجمال في الموضوع، فالفنان وهو يبدع عملا ما، هو في الحقيقة يفجر مكبوتا طبيعيا في ذاته.

والعلاقة الموجودة بين ملكة استشعار الجمال والموضوع، تكمن في أن الموضوع يكون قابلا للتفنن إذا وجد في النفس طبيعة قابلة ومنقادة له. ومعنى ذلك أن العمل الفني هو نتاج علاقة الذات بالموضوع، فكلما وجد الموضوع نفساً قابلة له، اكتسب شروط التمثل الجمالي، يقول أبو حيان التوحيدي: "إن الطبيعة مرتبتها دون مرتبة النفس، تقبل آثارها وتتمثل بأمرها، وتكمل بكمالها، وتعمل على استعمالها وتكتب بإملائها، وترسم بإلقائها.. فالموسيقار إذا صادف طبيعة قابلة، ومادة مستجيبة، وقريحة مواتية، وآلة منقادة، أفرغ عليها بتأييد العقل والنفس لبوساً مؤنقا، وتأليفا معجبا، وأعطاها صورا معشوقة، وحلية مرموقة، وقوته تكون في ذلك بمواصلة النفس الناطقة".

قد نفهم من النصوص التراثية أن العمل الفني ليس مجرد محاكاة للطبيعة، بل هو تطويع لها، فعوض أن تكون الذات منقادة للموضوع يكون الأخير هو المنقاد لها. وتلك هي مهمة الإنسان في الوجود.

العمل الفني فوق منطق المنفعة

العمل الفني عند المسلمين غير مرتبط بالمنفعة، باعتبار أن الجمال مطلب ذاتي غير مرتبط بمنطق الضرورة الفيزيائية أو البيولوجية التي تتحكم في الإنسان. ومن ثم فالعمل الفني عند فلاسفة الإسلام يتجه نحو منطق اللذة والذوق وليس إلى المنفعة، لذا يقول فيلسوف الشرق أبو حامد الغزالي: "إن كل جمال محبوب عند مدرك الجمال، وذلك لعين الجمال، لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة..".

إن العمل الفني في لحظات إبداعه الأولى يرفض منطق المنفعة لأن منفعته في ذاته، فهو نوع من إثبات الذات لذاتها خارج موضوعات الإثبات الفيزيائي. ومن جهة أخرى إن المنفعة تحدّ من قيمته التبادلية أو الاستعمالية، في حين أن العمل الفني لا يحمل القيمتين السالفتين، لأن قيمته في ما هو عليه.

إن لذة العمل الفني تكمن في قدرة الذات على اكتشاف ما تركه الله للبحث والتقصي. فالله ﷻ عندما ينبه الإنسان إلى تأمل النمل والعنكبوت والطير والنبات.. فهو يريدنا أن نفجر مشاعر الجمال المكنونة في ذواتنا لكي نكتشف المجهول فنصل إلى إدراك الجليل والجميل ومن ثم إدراك الحكمة من الخلق والصنع.

العمل الفني ممارسة ذوقية

إن العمل الفني في الإسلام يعتبر من حيث ارتباطه بالفرد الذي أبدعه، تجربة ذوقية خاصة تعكس ما يختلج في الذات من أماني وآمال، من لذات ورغبات، كما هو في نفس الوقت تنفيس عن ما هو في قرارة اللاشعور المكين. فالعمل الفني يعكس في كثير من الأحيان الحرمان والكبت، كما يصور الخيبة والهزيمة. إن المبدع في كثير من الأحيان يحاول أن يجسد ما لم يستطع أن يجسده في الواقع. فالعمل الفني قبل أن يُهدى إلى سلطان أو فلان، إنما هو في الحقيقة تعبير عن خبرة شخصية يجد فيها الآخر (المُتلقي) المظهر الجمالي أو المنفعة الخاصة. والمتصوفة يعتبرون التصوف حالة ذوقية صرفة، تتذوق من خلالها الذاتُ حلاوةَ الوصل والاتصال الروحي، وتعكس حالة الوجد والهيام. فالذوق السليم مطلب كل طالب للجميل والجليل.

التجريد والتوحيد

جاء الإسلام في فترة كان يغلب المحسوس على المعقول، والتجسيد على التجريد، فكانت الآلهة عند العرب تُنحت من الأشياء (علة تحريم الصور في المرحلة الأولى)، فالرب لابد أن يجسد في شكل ما (حي أو جامد)، وبالتالي ارتبط كل عمل فني في ما يسمى بالجاهلية بالتجسيم. فالشعر الجاهلي يحوي من الصور البيانية الخلابة ما لا يمكن إحصاؤه أو حصره، وعُدّت من صور البلاغة الكبرى، لكنها لم تستطع أن تخرج عن عالم الأشياء والحس.

ولذا انخرط المبدع والفنان في عصور الإسلام في العمل الفني التجريدي من منطلق التوحيد، الذي يفرض على المسلم أن يتعامل مع الله ﷻ وعالم الغيب والشهادة بالعقل المجرد فقط. إن الله لا يمكن أن ندركه بالحس ولا بالعقل، لكن يمكن أن نتمثله بصور مجردة أو رموز تحمل دلالات ميتافيزيقية.

لم يجد المبدع الإسلامي حرجاً في توظيف كل ما يمكن أن يؤدي إلى الغرض السابق، ولذا اختار حقول "الخط"، "الزخرفة"، "العمارة"، "المنمنمات"، وهناك مجالات أخرى لا يمكن أن نسردها في هذا المقال كالشعر، والخطاب الصوفي، وتصورات الفلاسفة.

الغايات من العمل الفني

العمل الفني في الإسلام غير مرتبط بالعجائبية والفرجة كما هو الحال في الفن الإغريقي، ولا يرتبط بغائية نفعية من جهة أخرى. إن غاياته المثلى ترتبط بإيجاد عالم ذاتي للفنان يتدرج فيه من مقام النفس إلى مقام القدُس -كما يقول أبو حامد الغزالي- أو يتدرج فيه من عالم الفناء إلى عالم البقاء. والتدرج هو محاولة إدراك العالم اللامتناهي إدراكا يجعل من ذاته تنسج خالص شعورها عن الكون والعالم والحق الذي هو الله ﷻ. ومن جهة أخرى ليس الغاية من الفن التعويض، ونقصد أن يتحول إلى قيمة سلبية مرتبطة بنية جعل الفن مجرد وسيلة نحقق من خلالها الكثير مما يحتاجه البشر في حياتهم، أي أن يتحول الفن إلى صناعة من الصناعات التي تخضع لمعيار الجودة والمنفعة. لكن العمل الفني في الإسلام مشروط أساسا بالله ﷻ، فهو نوع من العبادة الإيجابية لها مراتب ومدارج، تنتقل من ما هو ضروري إلى ما هو متعالٍ: "لذلك كان إدراك حدود الإدراك غاية الإدراك وبداية الفهم الحقيقي لآيات الوجود مرقاة للشهود، بل إن الشعر ليس إلا تعبيراً عن هذا الإدراك الأسمى".

إن حب الخلود يتطلب الفناء في ذات الأبدي السرمدي، ووعي الخلود لا يمكن أن يتذوقه إلا الفنان الرسالي (الفيلسوف، المتصوف، الشاعر...). فهو يدرك فناء الجسد والصورة التي هو عليها، لكنه يدرك خلوده في ما أبدعه بفضل ما وهبه له الله ﷻ من مدارك ومخارق. فالخلود يتجلى في العمل الفني عندما يمارس الفنان معاناة الفناء في ذات الأبدي: "أفضل عمل فني هو التاريخ الإنساني، عندما يكون حصيلة الآيات جميعاً، فيصبح مصدراً للفن غير التعويضي، للفن الناقل من الفناء إلى البقاء".

المخيلة والعمل الفني

اعتقد فلاسفة الإسلام أن النفس الناطقة تمتلك قوى متعالية عن المحسوسات تدرك بها العالم وصوره المختلفة. ومن بين أهم تلك القوى المُتخيلةُ التي تصنع المتخيلات التي لا تعكس المعقولات، ولكنها تستطيع أن تتمثل ملامح المعقولات في صور مفارقة لما هو موجود أو مألوف، وأن تلك القوة المتخيلة تسبق دوما القوة المتعقلة. فلو كان الإنسان قوة عقلية أو حسية فقط لانعدم وجوده الإنساني. فالمتخيلة باعتبارها قوة في النفس، تمكن الفنان المسلم من إبداع صور غير مألوفة، والسبب في ذلك حسب الفارابي، أن النفس قبل أن تستكمل كمالها لابد لها من تلك القوى حتى تعقل وجودها العيني: "وأما الأنفس فإنها ما دامت لم تستكمل ولم تفعل أفعالها كانت قوى وهيئات فقط معدة لأن تقبل رسوم الأشياء، مثل البصر قبل أن يبصر، وقبل أن تحصل فيه رسوم المبصرات، والمتخيلة قبل أن تحصل فيها رسوم المتخيلات، والناطقة قبل أن تحصل فيها رسوم المعقولات وتكون صورا". والمُخيلة تستطيع أن تنفذ بما لها من نفاذية في كل شيء، وهي متحررة لكونها لا يمكن أن تكون متخيلة إلا في كونها حرة. وقد نبه الله ﷻ الإنسان إلى تلك القوة الكامنة فيه، حين طلب منه إن استطاع أن ينفذ من أقطار السموات أن ينفذ، ولكن نفوذه لا يكون إلا بسلطان، وأنا أعتقد أن ذلك السلطان هو المتخيلة.

إن الرسول ﷺ في أحرج لحظات الدعوة، يسبح بالمؤمنين في عالم المُخيلة المرتبطة باليقين. فالأعداء كانوا يطوقون المدينة، ولم يجد المسلمون وسيلة سوى تخندق في خندق أقامه سلمان الفارسي، لكن وفي عز الأزمة يهلل الرسول ﷺ حين ضرب الصخرة: "الله أكبر فُتحت فارس.. الله أكبر فُتحت مصر..". إن شعور المسلم في تلك اللحظة لا يمكن أن نفصله عن مخيلته، والتي حتماً أخرجته من جحيم الحصار إلى نعيم الوعد. لقد سبح كل مؤمن خلف تلك الصيحة ينظر إلى أرض فارس ومصر والشام، رغم أنه في تلك اللحظة موجود في مكان مُطوق وضيق.

إن الله عندما يضرب الأمثال للناس يريد أن يُفجر فيهم المُخيلة، فلا يمكن أن ندرك الأشياء بالحس والمشاهدة. فالجنة كنعيم أبدي وجهنم كشقاء سرمدي يستحضرها الإنسان بمخيلته، رغم أننا لا يمكن أن نتصور الجنة والنار كما ستكون، ولكن نحن ننفذ إليها بالمخيلة ولو نسبياً. والجمال باعتباره لغة رمزية راقية ارتبط بالخيال، لأن الرمز لا يمكن أن يكون إلا في وجود المتخيلة.

الجمال والكمال الإنساني

الهدف من الفن في الإسلام الوصول إلى تجديد الصلة بالله ﷻ عن طريق آخر، غير طريق العبادات المتعارف عليها. إن الفن هو محاولة الوصول إلى الإنسان الكامل من منظور إسلامي خالص. إن الفنان المسلم يحاول أن يصل إلى الكمال النسبي حين يحاول أن يتمثل الله ﷻ في آياته وخلقه. فالمحاكاة لا تعني نسخ صور الطبيعة بقدر ما هي محاولة إثبات قدرة الإنسان، إنه يتمثل الله ﷻ في خلقه وإبداعه، إنه نوع من الكوجيتو بين الإنسان والله ﷻ: "أنا أبدع، إذن أنا كامل". إن الله ندركه من خلال هذا الكوجيتو، فنحن نعرف من خلال أروع عمل فني أن الإنسان عاجز أن يخلق أو يبدع مثلما أبدع الله ﷻ، لكن رغم ذلك نشعر بالفرحة حين نستطيع أن نبدع صورا فنية تحاكي في روعتها الصورة الأولى.

إن موضوع العمل الفني في الإسلام له شجون وفنون، لا يسعنا أن نقدمها في هذا العمل، ولكن يمكن القول إن العمل الفني يحمل أبعادا ويستطيع أن يجد لنفسه مكاناً ومنزلة في فضاء الفن العالمي. ■

(*) أستاذ محاضر بقسم الفلسفة، جامعة وهران / الجزائر.

جمال بلا فنّ شيء موات، وفكر بلا جمال جسد بلا روح. بالفن تتفتّح الأبواب، وتتجمّل كنوز الفكر، وتتصور مشاعر الوجدان.. والأفكارُ المجردةُ حياةٌ تلبس، والخيالُ الهوّام في الأعالي جسما يكتسي، وإلى الأرض يعود.

***

العالمية
هي خصوصية حقوق الإنسان في
الإسلام

أ.د. إبراهيم البيومي غانم *

يقول الله ﷻ في محكم آياته مخاطباً النبي الأكرم سيدنا محمداً ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧). و"العالمين" ليسوا فقط كل بني آدم، في كل زمان ومكان، وإنما هم عالم الإنس وعالم الجن وعوالم الحيوانات والجمادات، كل منها له حظ من الرحمة المهداة للعالمين، سيد الأولين والآخرين. وعليه فإن كل خير جاء به ودعا إليه وحض على التنافس فيه، لا يقتصر على جنس دون آخر، بل يشكل كل العالمين، ليذوقوا من نعمة الإسلام ، وليتعرفوا عليه عملياً قبل أن يطالبوا بالإيمان به وبعد أن يطالبوا به، سواء أجابوا داعي الله أم أعرضوا عنه ولم يجيبوه.

ولكن الجدل حول حقوق الإنسان في المنظور الإسلامي يتجه اتجاهات شتى، منها ما يؤكد الخصوصية والفرادة التي تميز الرؤية الإسلامية لحقوق الإنسان بمعنى يحصرها في

صنف معين من البشر، وربما في مناطق جغرافية دون غيرها من العالم؛ ومنها ما يؤكد تطابقها تمام الانطباق مع النظرية الأوربية السائدة باعتبارها نظرية عالمية، ومن ثم يرفض أنصار هذا الاتجاه وجود خصوصية لنظرية حقوق الإنسان الإسلامية.

أصحاب الاتجاه الأول يظلمون الرؤية الإسلامية لحقوق الإنسان، إذ يحبسونها في إطار ضيق ويعطلون رسالتها العالمية؛ وأصحاب الاتجاه الثاني يتجاهلون جوهر هذه الرؤية وعمقها الإنساني ويحاولون تقريبها من الرؤية الغربية المفتقدة لهذا العمق الإنساني في كثير من جوانبها.

عالمية الرؤية الإسلامية

وفي رأينا أن الخصوصية الكبرى لمفهوم حقوق الإنسان في الرؤية الإسلامية تتمثل في "الشمول والعالمية"؛ فقد جاءت الشريعة بتقرير كل أنواع الحقوق المدنية والدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية، الجماعية منها والفردية من جهة، وجاء الخطاب من جهة أخرى باحترام هذه الحقوق وحمايتها وضمانها شاملاً لكل بني آدم، أو لكل إنسان بوصفه إنساناً، وبوصفه إنساناً فقط لا أكثر من ذلك ولا أقل؛ بل تمتد هذه الحقوق -في جوانب كثيرة منها- لتشمل الحيوان والجماد والبيئة في منظومة متجانسة ومتناغمة.

إن خصوصية حقوق الإنسان في الرؤية الإسلامية هي في "عالميتها" إذ إن خطاب التكليف بها وبحمايتها موجه للآدمي بموجب كونه إنساناً، وليس ثمة حق واحد دينياً كان أو مدنياً، سياسياً أو اجتماعياً مقرر للمسلم وحده ومحظور على غيره. وهذه الخصوصية أيضاً هي في شمولها لكل أنواع الحقوق التي عرفتها المواثيق والإعلانات العالمية لحقوق الإنسان في صيغها الحديثة والمعاصرة.

إن مصطلح حقوق الإنسان -المستعمل في الخطاب المعاصر- يشير إلى مجموعة الحقوق والمطالب الواجب الوفاء بها لكل البشر على قدم المساواة دونما تمييز فيما بينهم لأي سبب كان. ولكن هذا التعريف العام ليس مسلماً به لدى المجتمعات المختلفة؛ ذلك لأن نوع هذه الحقوق يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتصور الأساسي عن الإنسان ذاته، فإذا كان الإنسان فرداً حراً ذا كرامة وقيمة ويمتلك العقل والضمير، ويمتلك القدرة على الاختيار الأخلاقي والتصرف السليم، ويملك أيضاً الحكم الصائب على ما هو في مصلحته، فإن حقوق هذا الإنسان سوف تنبني على أساس هذا التصور. والواقع يشهد بوجود كثير من صور التمييز الفعلي بين بني البشر، إضافة إلى انتهاك أبسط حقوقهم، وليس ذلك إلا نتيجة من نتائج الثقافات الاستبدادية والعنصرية كتلك التي ظهر فيها من يقول إنه "شعب الله المختار"، أو إن شعباً من الشعوب فوق الجميع، أو إنه يحمل عبئاً تجاه الأجناس الأخرى البدائية المتخلفة باعتباره جنساً أرقى، وكلها نزعات ظهرت وترعرت في الثقافات الوضعية، وتركت آثارها على علاقاتها مع أصحاب الثقافات الأخرى.

وإذا نظرنا إلى جملة حقوق الإنسان التي قررتها الشريعة على أي مستوى من مستويات التأصيل النظري سنجد أنها تؤكد على صفتي العالمية والشمول كما ذكرنا.

نظرة الإسلام إلى الإنسان

فالتأسيس المعرفي الفلسفي يبدأ بإسناد جميع الحقوق المقررة للإنسان إلى الله خالق الإنسان، ويجعلها واجباً مقدساً مفارقاً لأي سلطة وضعية، كما يضفي عليها قوة إلزامية يتحمل مسؤولية حمايتها كل فرد، فهي تسمو إلى مرتبة الواجب الديني. وبما أن هذه الحقوق مقررة من خالق الإنسان إذاً فهي لا تعترف بالفروق الجنسية أو الجغرافية أو العقائدية.

أما التأسيس الشرعي الأصولي فيؤكد على أن كل شيء في الأصل مباح وهو الأوسع دائرة، وأن الاستثناء هو التحريم وهو الأضيق دائرة، وأساس الإباحة والتحريم هو مصلحة الإنسان نفسه. ولا تقف حدود حرية الفرد وحقوقه إلا عند حدود حرية وحقوق الآخرين، فلا يجوز أن يخل أحد بحريةِ أو بحق غيره فـ"لا ضرر ولا ضرار". ولابد في جميع الحالات من الالتزام بفضائل الأخلاق في ممارسة الحقوق أو في الدفاع عنها، فإن جادل فعليه أن يجادل بالحسنى، وعليه أن لا يقول ما لا يفعل، وإذا حكم أن لا يكون فظاً غليظ القلب، إلى غير ذلك من الأخلاقيات التي حضت عليها آيات الكتاب الكريم والسنة النبوية.

إن البحث في مضمون خصوصية حقوق الإنسان من المنظور الإسلامي يقتضي بادئ ذي بدء الرجوع إلى نظرة الإسلام إلى الإنسان وتحديد موقعه في هذا الكون. وهنا

نجد أن الإسلام قد اعترف بكيان الإنسان كما هو في حقيقته، فكل إنسـان أيـاً كان عرقه أو لونه أو دينـه أو حضارته محترم وأخ لأخيـه الإنسـان، "كلكم لآدم وآدم من تـراب". وأياً كان المـكان أو الزمـان الـذي يولـد ويعيش فيه، هذا الإنسـان في نظـر الإسـلام يولد على الفطرة، وهـذه الفطرة هي واحدة في كل بنـي آدم، وهـي موجودة كاملة غير منقوصة فيه منذ لحظة ميلاده، وتشمل هذه الفطرة نفخة من روح الله تعالى. ولا يولد الإنسـان على الفطرة فقط، وإنمـا يولد مزوداً بأدوات المعرفة الأساسية: السمع والبصر والفؤاد، وهي الأدوات التي يستطيع بهـا أن يخـدم مـا في روحه من شـوق إلـى معرفـة الله، وإلى الحرية بأوسـع معانيها، وإلى التمتع بالحياة وتحقيق الازدهار الروحي إلى جانب الازدهار المادي وترقية نوعية حياته.

الاعتراف بحقوق الإنسان أصل كل الحقوق

ومـن هنـا كان أهـم وأول حـق مـن حقـوق الإنسـان تؤكـده الخصوصية الإسـلامية هو حق الاعتراف به كإنسـان. إن هذا الحـق هـو أصـل كل الحقوق الأخـرى، وبـدون تقريره على هـذا المسـتوى الأصولـي الروحـي يكـون عرضـة لانتقاص كثيـر من حقوقه الأخرى تحت دعاوى كثيـرة يختلقها الطغاة والمسـتبدون، وتبررها السـلطات التي تتحكم فيه سواء كانت سياسـية أو اجتماعيـة أو دينيـة. والتاريـخ -القديم والوسـيط والحديـث والمعاصـر- يقـدم لنا كثيـراً من الأدلة والشـواهد التي تؤكد على أن عدم الاعتراف بآدمية الإنسـان، أو بإنسـانية الآدمـي الـذي كان هو البداية الأولى لإهـدار كثير من حقوقه وحرياتـه الأساسـية، كما يمدنا التاريخ بشـواهد كثيرة توضح فداحـة التضحيات التي قدمتها المجتمعات حتى وصلت إلى انتزاع الاعتراف بإنسـانية الآدمي وكونه أهلاً للتمتع بالحقوق وممارستها وحمايتها.

إذا انتقلنا إلى التأسـيس الفقهي/القانوني لحقوق الإنسـان التـي جـاءت بهـا شـريعة الإسـلام، سـنجد أنـه حـاول دومـاً الاقتراب من النموذج الأساسـي لتلـك الحقوق في "عالميتها وشمولها"، ولكننا سنلاحظ أيضاً أن الاجتهادات التي أدلى بها الفقهاء قد تباينت عبر العصور لأسباب شتى -ليس هنا مجال التفصيـل فيهـا- فاقتربـت حيناً مـن النموذج الأساسـي الذي أرسته المصادر المعرفية/الفلسفية، والأصولية، وابتعدت عنها حيناً آخر وعجزت عن اسـتيعاب مضامينها الواسعة وقصرت عن الإحاطة بنزعتها الإنسانية الشاملة.

أما إذا انتقلنا إلى ما يمكن أن نطلق عليه "التأسيس العملي/التطبيقـي" لتلـك الحقوق، فسـوف نجد أن الفجـوة أضحت أوسـع بيـن مـا يجب أن يكـون ومـا كان بالفعل عبـر مراحل تاريخيـة مختلفـة، أو مـا هو كائن فـي واقعنا الراهـن. ولهذه الفجوة أسباب كثيرة أيضا تفسرها وتشرح آليات اتساعها حيناً أو ضيقها حيناً آخر، وهذا موضوع لحديث آخر.

الصياغات المقننة لحقوق الإنسان

والأمر الجدير بالإشـارة هنا هو أن الفقه الحقوقي الإسـلامي المتعلـق بمنظومة "حقوق الإنسـان" قد تأخـر كثيراً في تقديم صياغـات قانونيـة تحدد هذه الحقـوق بلغة معاصـرة، وذلك بعكـس ما فعل الفكـر الأوربي الحديث والمعاصر الذي عني بتقنيـن هـذه الحقـوق وتحديدها بقـدر كبير من الدقـة، وقام بالتعبيـر عنهـا في صـور متعددة مثـل الإعلانـات والمواثيق، والمعاهـدات الدوليـة التي تباينت من حيـث قوتها الإلزامية، من الإلزام المعنوي أو الأخلاقي، إلى الإلزام القانوني.

وأياً كانت الأسـباب التي أدت إلى تأخر الفكر الإسـلامي الحديث والمعاصر عن تقديم صياغات مقننة لحقوق الإنسان في صورة مواثيق أو إعلانات أو معاهدات، فقد ظهرت خلال العقـود الأخيرة من القرن الماضـي عدة صياغات في محاولة لتدارك هذا التقصير، وتمثلت تلك الصياغات في الآتي:

- "إعلان حقوق الإنسان وواجباته في الإسلام". وقد صدر عـن رابطـة العالم الإسـلامي بمكة المكرمة في سـنة ١٩٧٩.
- "البيان الإسـلامي العالمي لحقوق الإنسـان". وقد صدر عن المجلس الإسلامي الأوربي في لندن سنة ١٩٨٠.
- "مشروع وثيقة حقوق الإنسان في الإسلام"، الذي صدر عن مؤتمر قمة منظمة المؤتمر الإسلامي في الطائف سنة ١٩٨٩.
- "مشـروع حقوق الإنسـان في الإسـلام"، الذي قدم إلى المؤتمر الخامس لحقوق الإنسان في طهران، في كانون الأول ديسمبر ١٩٨٩.
- "إعلان القاهرة حول حقوق الإنسان في الإسلام" سنة ١٩٩٠.
- "إعلان بشـأن حقوق الطفل ورعايته في الإسـلام". وقد صدر في المغرب سنة ١٩٩٤.

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

هذا إلى جانب مبادرات وصياغات أخرى متفرقة، بعضها بجهد فردي، وبعضها بجهد جماعي مؤسسي، وجميعها لا يزال في مرحلة الإعلان والبيان والتعريف دون أن تحمل أية قوة إلزامية وبخاصة في مواجهة أنظمة الحكم التي تمارس عمليات انتهاك حقوق الإنسان في كثير من بقاع العالمَين العربي والإسلامي، حسبما توضح التقارير الدورية التي تصدر عن منظمات حقوق الإنسان في العالم.

حرية الفرد دعامة أساسية في الإسلام

إن نقطة البدء في تأسيس خصوصية النظرية الإسلامية في حقوق الإنسان هي "عصمة الآدمي" في ذاته وكما خلقه الله، وهذا هو الأصل الكبير الذي يخوله الحقوقَ الأخرى جميعها.

ولمزيد من التأكيد على الأطروحة التي نتبناها وهي أن خصوصية نظرية حقوق الإنسان في الإسلام هي في عالمية هذه الرؤية، نقول إن الدعامة الأساسية التي اتخذها الإسلام لكل ما شرعه من عقائد ونظم وقوانين هي "حرية الفرد"، والإقرار بقدرته على الاختيار بملء إرادته دون حاجة إلى وسيط أو وصي، اللهم إلا في حالات نادرة واستثناءات محددة تتعلق بفقدان الأهلية، أو تعرضها للنقص بسبب عيب من العيوب، بل إن بعض الفقهاء العظام من أمثال أبي حنيفة النعمان ذهبوا إلى أنه لا يجوز الحجر على السفيه، والسفه عيب من عيوب الأهلية كما هو معروف، وعلل أبو حنيفة ذلك بالقول بأن الحجر على السفيه إهدار لآدميته، وإلحاق له بالبهائم، وأن الضرر الإنساني الذي يلحقه من جراء هذا الإهدار يزيد كثيراً على الضرر المادي الذي يترتب على سوء تصرفه في أمواله، وأنه لا يجوز أن يدفع ضرر بضرر أعظم منه.

وبتقرير الحرية الفردية على هذا النحو الذي ألمحنا إليه، تقررت جملة الحقوق الأساسية المرتبطة بكيان الإنسان وآدميته، وفي مقدمتها الحقوق المتعلقة بحرية التفكير والتعبير، وحرية البحث والتأمل. ولا يوجد في أصول الإسلام وتعاليمه، ولا في اجتهادات الأئمة المعتبرين أي توجيه يهدف إلى فرض الأخذ بنظرية علمية بشأن أي ظاهرة من الظواهر، عكس ما عرفته بعض الممارسات في تاريخ الأديان والثقافات الأخرى، وعرفت في سياقها محاكم التفتيش. ■

(*) أستاذ العلوم السياسية، جامعة القاهرة / مصر.

الماورائي آتٍ

قادم من بعيد،
فارس لا يحيد،
يسابق الريح،
ويطوي المسافات،
بقلب مهموم،
وروح مجروح...
عميق كاليمِّ،
واسع كالمحيط...
آمال عظيمة على منكبيه،
وأحلام مزهرة في خافقيه...
* * *





الروح والمادة في الأمن المجتمعي

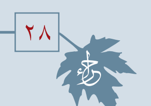
أ.د. محمد عمارة *

بالأمن الاجتماعي والمجتمعي يزدهر العمران الإنساني، وبغيبته يتراجع هذا العمران. وإذا كانت المقومات الضرورية لتحقيق الأمن الاجتماعي والمجتمعي كثيرة ومتعددة، فإن في مقدمة هذه المقومات يأتي الأمن الديني والروحي والفكري، والأمن على مقومات المعاش المادي في دنيا الإنسان.

فبدون الإيمان ومن ثم الأمن الديني والعقدي والفلسفي، يلتهم الخوف والفزع والقلق والاغتراب استقرارَ الإنسان وطمأنينته. ذلك لأن الإيمان (الديني) هو الذي يحقق للإنسان الانتماء إلى هذا الوجود، ويقوده إلى رحاب المعية الإلهية وحضرتها القدسية، فيأنس بهذه المعية وينجو من غول الاغتراب الذي يفترس أمن الإنسان في المجتمعات المادية والوضعية واللادينية.

ففي غاية التحديات الشرسة والكوارث والأمراض والحروب، وفي مواجهة المظالم والقهر والجبروت، يكون الإيمان (الديني) -ومن ثمراته الانتماء والاحتماء بالمعية الإلهية- طوق النجاة للإنسان من الوحدة المخيفة والقاتلة، ومن الاغتراب القاتل للروح والآمال والطاقات والإمكانات.

ولهذه الحقيقة لا يعرف المؤمنون الذين اطمأنت قلوبهم بالإيمان اليأسَ



ولا القنوطَ ولا الانتحار، مهما كبرت مشكلاتهم المادية والمعاشية؛ بينما تشهد المجتمعات المادية والوضعية -مع ارتفاع مستويات المعيشة والرعاية الصحية والإشباع للغرائز والشهوات- أعلى مستويات القلق ومعدلات الانتحار.. وذلك لفقدان الأمن على الغد، والأمل فيما بعد ظاهر الحياة المادية، بعد تخمة البطون والإفراط في إشباع الغرائز والشهوات.

الذين يقارنون إحصاءات العيادات النفسية وزوارها وانتشار القلق، وكثرة المنتحرين في المجتمعات الإسكندنافية -مثلاً- حيث أعلى مستوى معيشة في العالم، وحيث الإشباع المفرط للغرائز الجنسية، بنظيرة هذه الإحصاءات في مجتمع مؤمن تطحنه مشكلات الفقر والعوز يدركون حقيقة وأهمية عامل الأمن الروحي بالنسبة للإنسان. وذلك عندما يحقق هذا الإيمان للإنسان المؤمن الانتماء إلى القوة الأعظم في هذا الوجود والاحتماء بطلاقة قدرتها، ويسلحه بمعية هذه القوة الأعظم، حتى ليحقق هذا الإيمان والانتماء للأشعث الأغبر سلطاناً يجعله إذا أقسم على الله أبرّه الله.

الربط التفاعلي بين المقوم الروحي والمادي

ومن عظمة الفلسفة الاجتماعية في الإسلام ربطها -الربط الجدلي والتفاعلي- بين هذا المقوّم الأول من مقومات الأمن الاجتماعي، أي المقوم الإيماني والروحي والفكري، وبين المقوم الثاني -المادي- المتمثل في الأمن الإنساني على المقومات المعيشية اللازمة له في هذه الحياة الدنيا. بل إن هذه الفلسفة الاجتماعية الإسلامية تبلغ القمة في العظمة عندما تجعل الأمن على المعاش المادي هو الشرط الضروري لتحقيق كمال واكتمال الأمن الديني والروحي للإنسان في هذه الحياة. وذلك عندما تقرر هذه الفلسفة الاجتماعية أن "صلاح الدين" مؤسس على "صلاح المعاش" وتوفر الضرورات والحاجات المادية للإنسان.. فـ"الواقع" يخدم "المثال" ويقيم معه علاقة جدلية.

وبعبارة حجة الإسلام أبي حامد الغزالي (١٠٨٥-١١١١م): "فإن نظام الدين لا يحصل إلا بانتظام الدنيا. فنظام الدين بالمعرفة والعبادة، لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن، وبقاء الحياة، وسلامة قدر الحاجات من الكسوة، والمسكن، والأقوات، والأمن...".

ثم يستطرد الغزالي فيقول: "ولعمري إن من أصبح آمنا في سربه، معافى في بدنه، وله قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها. فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية، وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقاً بحراسة نفسه من سيوف الظلَمة، وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يتفرغ للعلم والعمل، وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة؟ فإذن، بان أن نظام الدنيا، أعني مقادير الحاجة، شرط لنظام الدين".[١]

فالأمن الاجتماعي والاطمئنان على توافر وسلامة مقومات الاجتماع البشري والعمران الإنساني، المادية والمعنوية من صحة البدن إلى بقاء الحياة إلى حاجيات الكساء والمسكن والأقوات إلى الأمن، الذي ينفي عن الحياة الإنسانية عوامل الخوف والروع والفزع... جميع ذلك قد سلكته الرؤية الإسلامية في عداد "الضرورات" و"الحاجيات"، لا مجرد "الحقوق" أو "الكماليات"، ثم جعلته " الفريضة" التي تترتب على إقامتها فرائض الدين وشعائر العبادات.

وبعبارة الشيخ المجدّد محمد الغزالي (١٩١٧-١٩٩٦م): "لقد رأيت -بعد تجارب عدة- أنني لا أستطيع أن أجد بين الطبقات البائسة الجو الملائم لغرس العقائد العظيمة والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة. إنه من العسير جداً أن تملأ قلب الإنسان بالهدى إذا كانت معدته خالية، أو أن تكسوه بلباس التقوى إذا كان جسده عارياً. إنه يجب أن يؤمَّن على ضروراته التي تقيم أَوَدَه كإنسان، ثم يُنتظر أن تستمسك في نفسه مبادئ الإيمان. فلابد من التمهيد الاقتصادي الواسع، والإصلاح العمراني الشامل، إذا كنا مخلصين حقاً في محاربة الرذائل والمعاصي والجرائم باسم الدين، أو راغبين حقاً في هداية الناس لرب العالمين".[٢]

الأمن وعاء إقامة الدين وتحقيق المعاش

وإذا كان الإيمان (الديني) بما يثمره من طمأنينة روحية وفكرية وفلسفية، هو المقوم الأول من مقومات الأمن الاجتماعي، وإذا كان مقام هذا المقوم من مقومات الأمن الاجتماعي والمجتمعي قد جعله واحداً من المقاصد العظمى للشريعة الإسلامية -الحفاظ على الدين- وجعل العدوان عليه والفتنة فيه موجباً للقتال إذا فرض الأعداء على المؤمنين الفتنة في الدين، فلقد جعل الإسلام -كذلك- الحفاظ على الأمن -المال والوطن- الذي هو وعاء إقامة الدين وتحقيق

المعـاش.. جعل الحفاظ على ذلك مبـرراً لوجوب القتال إذا فـرض الأعداء على المؤمنيـن الحرمان من ثرواتهم وأموالهم أو الخروج من ديارهم.

فالدفاع عن حرية الدين والتدين سبب في وجوب الجهاد القتالي، والدفاع عن المعاش وعن الوطن الذي هو وعاء الأمن على المعاش، سبب هو الآخر للجهاد القتالي، بل إنهما السببان الوحيدان للقتال في الإسلام: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج:٣٩-٤٠)...

وصـدق رسـول الله ﷺ إذ يقـول: "مَن قُتـل دون مالِه فهو شـهيدٌ، ومَن قُتل دون دينه فهو شـهيدٌ، ومن قُتل دون دمه فهو شهيدٌ، ومن قُتل دون أهله فهو شهيدٌ" (رواه الترمذي).

تحقيق الأمن فريضة اجتماعية

فالمال مال الله، والناس مستخلفون فيه، يتملكون ويستثمرون ويتمتعـون -كوكلاء ونـواب- في حدود ضوابـط عقد وعهد الاسـتخلاف، التـي تحددت فـي قـول الله ﷻ: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾(الحديد:٧).

وفي تفسـيرها يقول الإمام الزمخشري (١٠٧٥-١١٤٤م) في كتاب "الكشـاف": "إن مـراد الله في هذه الآية هو أن يقول للناس: إن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله، بخلقه وإنشـائه لهـا، وإنمـا موَّلكـم إياها وخوّلكـم الاسـتمتاع بها، وجعلهكـم خلفاء في التصرف فيها، فليسـت هي أموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب".[٣]

وبعبـارة الأسـتاذ الإمـام الشـيخ محمـد عبـده (١٨٤٩-١٩٠٥م) الذي نبّه على دلالات إضافة القرآن الكريم مصطلح "المـال" إلـى ضمير "الجمع" في سـبع وأربعين آيـة، بينما لم يضفـه إلى ضمير "الفرد" إلا في سـبع آيـات، وذلك "لينبه الله بذلـك على تكافل الأمة في حقوقها ومصالحها، فكأنه يقول: إن مال كل واحد منكم إنما هو مال أمتكم".[٤]

ولذلـك كان نصيب الفقراء فـي الأموال والثروات "حقاً"، وليس "منَّة" من الأغنياء، لأن الكافة مستخلفون في مال الله الذي خلقه وسخره للكافة: ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾(الرحمن:١٠).

ولأن الحفـاظ على النفـس والحياة هو مقصد من مقاصد الشـريعة الإسـلامية لا يجوز التفريط فيه، وجب الجهاد -ولو بالقتـال- لتحصيـل ما تحفظ به الحياة الإنسـانية. وقال الإمام ابن حزم الأندلسي (٩٩٤-١٠٦٤م): "وفرض على الأغنياء من أهـل كل بلـد، أن يقومـوا بفقرائهم، ويجبرهم السـلطان على ذلـك، إن لـم تقـم الزكوات بهـم، ولا فيء أموال المسـلمين بهـم، فيقـام لهم بما يأكلـون من القوت الـذي لابد منه، ومن اللبـاس للشـتاء والصيـف بمثـل ذلـك، وبمسـكن يُكِنُّهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارّة.

فالأمـن على المعـاش قضيـة مجتمعية، لا تُتـرك -فقط- لنوايـا الأفـراد ومبادراتهـم؛ لأن إقامـة هـذا الأمـن وتحقيقه فريضـة اجتماعيـة، يتوجه التكليـف فيها إلـى المجتمع الذي تقوم مؤسساته بإقامتها، ومنها مؤسسة الزكاة ومؤسسة الوقف ومؤسسات الصدقات والتكافل الاجتماعي...

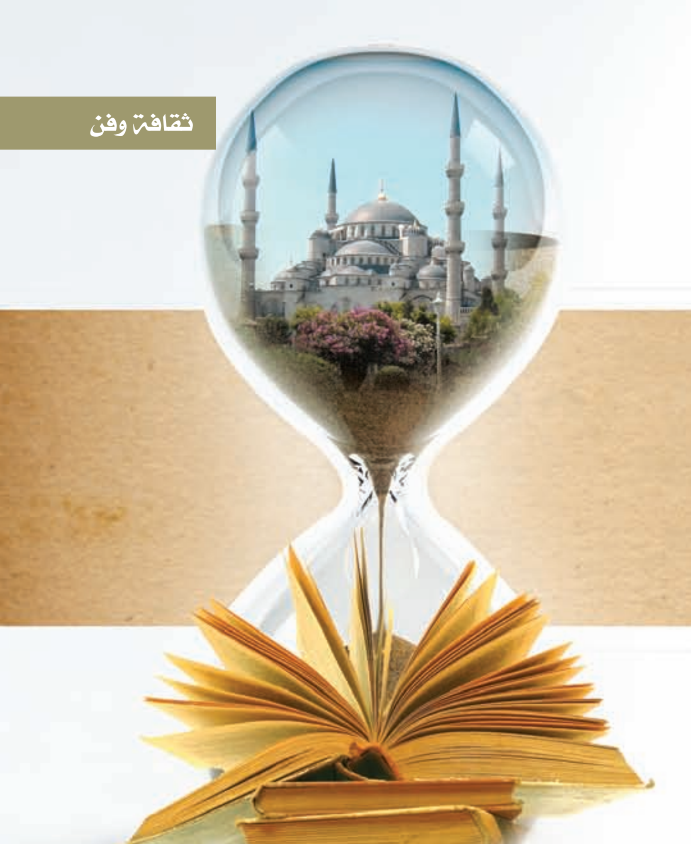
فـإذا غـاب دور هذه المؤسسـات المجتمعية عن السـاحة أو قصـرت فـي إقامـة هـذه الفريضـة، وجـب علـى السـلطة والدولـة القيـام بهذه الفريضـة؛ لأننا بإزاء "فريضـة" لا يجوز التفريـط في إقامتها، وليسـت مجرد "حق" يجـوز التنازل عنه حتى طواعيـة واختياراً.. فالظلم حرامٌ وممنوعٌ ومؤَثَّم ومجرَّم حتـى ولـو كان ظلماً للنفس، وليس فقـط للآخرين. وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِـهِمْ قَالُوا فِيـمَ كُنْتُـمْ قَالُـوا كُنَّا مُسْـتَضْعَفِينَ فِـي الأَرْضِ قَالُوا أَلَـمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾(النساء:٩٧). كمـا أنـه على الكافة مـن القادرين الجهاد لإخراج المستضعفين من الاستضعاف: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِـي سَـبِيلِ اللهِ وَالْمُسْـتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَـالِ وَالنِّسَـاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾(النساء:٧٥). ■

---

[*] كاتب ومفكر إسلامي / مصر.

الهوامش:

[١] الاقتصاد في الاعتقاد، لأبي حامد الغزالي، ص:١٣٥، القاهرة.
[٢] الإسلام وأوضاعنا الاقتصادية، لمحمد الغزالي، ص:٦١-٦٢، القاهرة.
[٣] الكشاف، للزمخشري، جـ:٤، ص:٦١، القاهرة، ١٩٦٧م.
[٤] الأعمال الكاملة، للإمام محمد عبده، جـ:٥، ص:١٩٤.



الفن الإسلامي
وبناء الشخصية الإنسانية

د. محمود خليل *

يقوم المفهوم الإسلامي للفن على التواصل الذي يستحيل فيه التناقض مع الفطرة، وهو عنصر أصيل من عناصر الفكر يتكامل مع الأدب والاجتماع والأخلاق والدين والحضارة.. وعلى حد تعبير العلامة أنور الجندي: "إن مفهوم الإسلام للفن، يأتي مطابقاً لفطرة الإنسان ونزعاته وما رُكب فيه من غرائز وميول، فلم يحاول كبتها، بل أتاح له الفرصة لتلبية ما تنطوي عليه النفس البشرية من غرائز وميول مع الاعتدال والتوازن. فالإسلام يقبل مباهج الحياة ومتعها ما دامت لا تتعارض مع أصوله ولا تخرجه عن دائرة الاعتدال والتوازن. فليس هناك ما يحول بين المسلمين وبين تمتعهم بالفنون الجميلة".

ذلك لأن التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان -كما يرى محمد قطب- هو أشمل تصور عرفته البشرية حتى اليوم، لأنه التصور الذي لا يأخذ جانباً من الوجود ويدع جانباً آخر، وإنما يأخذ الوجود كله، بمادياته وروحانياته ومعنوياته وكل كائناته، ويتصل به اتصال المودة والقربى والإخاء.

الفن الإسلامي رؤية تكوينية

فالفن الإسلامي هو الذي استوعب الفنون البابلية والآشورية والساسانية والفرعونية والبيزنطية والرومانية والهندية والصينية والتركية... وأعاد صياغتها وتمثلها في صيغ إسبانية ومغاربية وعربية وسلجوقية وعثمانية ومغولية وفارسية حديثة، وأحسن إمدادنا برحيقها الخالص بعد أن سقاه بماء الإسلام، وأقام بناءه الجديد من منظور إسلامي أصيل، في التصوير، والزخرفة، والسجاد، والخزف، والخط، والعاج، والساج، والعمارة، والزجاج، والنسيج، والتطريز، والتشكيل، والتنوين، والتكوين، والأرابيسك.. وأغنى ذلك العطاء الحضاري كله عبر امتداد المدارس الفنية المتتابعة والمتواكبة من غانة إلى فرغانة ومن طنجة إلى جاكرتا.

ومن جملة الاستلهامات العقائدية الصحيحة المنبثقة من روح الدين وغاية الرسالة، يتم تمثل القيمة في المخيلة وتمثيلها في الواقع، ومن ثم يلعب الفن الإسلامي هذا الدور العريض والعميق في المنطلق الحضاري للأمة.

فالفن الإسلامي لم يتورط بهذا الشكل الديني الضيق، الذي ظن أن غاية الفن المقدس هي التجسيد الفني للتاريخ المقدس. والفن الإسلامي يقيم حوارية حية نابضة، دائمة التواصل والتفاصل بين ما سبق وما لحق من فنون، غايته منها تصوير الجمال وفق غايات الحق وأهداف الحقيقة.

وعلى هذا فالفن في عصرنا هذا، هو الموطد الأصيل والممهد اللائق والرافد الأول للتربية الوجدانية والسلوكية التائهة في حياة المسلم التائه المعاصر.

ولا مراء في أن موضوع "الفن" موضوع في غاية الخطر والأهمية، لأنه يتصل بوجدان الشعوب ومشاعرها، ويعمل على تكوين ميولها وأذواقها واتجاهاتها النفسية، بأدواته

المتنوعة والمؤثرة مما يسمع أو يقرأ أو يرى أو يحس أو يتأمل.

ولا مراء في أن الفن كالعلم، "فهو وسيلة إلى مقصد حكمه حكم مقصده، فإذا استخدم في حلال فهو حلال وإذا استخدم في حرام فهو حرام".

فحاجة الإنسان إلى الزينة والجمال والوجدان والحب كحاجته إلى اللباس والأكل والشرب. والمسلم المصلح هو من يمتلك فقه المواءمة والملاءمة عن جدارة واستحقاق، ويكون مؤهلاً لتوجيه الركب وتنوير الدرب.

الخطاب الفني السينمائي

وأما ما يتعلق بصناعة الشريط السينمائي من اقتصاديات وبُنى أساسية -فضلاً عن المحتوى الفني والأدبي والفكري- فيشار إلى أنها صناعة ثقيلة، تأتي في العمق من الصناعات التنموية المستديمة. ذلك لأن السينما هي فن الترسيخ التربوي الجميل الممتع غير المباشر، لكنه الأقوى والأبقى والأعمق أثراً، كما أنها (السينما) مهمة ضخمة وهائلة.

يتبقى بعد ذلك أن ندرك مدى أهمية الروافد المغذية لهذه الصناعة؛ من مؤلف، ومخرج، وكاتب سيناريو، وممثلين، وفناني ديكور، ومونتير، وسائر أصحاب التقنيات؛ من مونتاج، ومكياج، وإضاءة ومصور وطباعة وتحميض وتصوير وموسيقى وعرض وتوزيع ومهن أخرى مساعدة، تفوق الثلاثين مهنة، تتكامل وتتواصل لصياغة خليط بشري وتقني، منتج للشريط السينامائي الدّوار...

"إن كتابة النص علم، وكتابته في صورة حوار (سيناريو) علم، وإخراجه علم، وأداءه علم، وتنفيذه علم، وتسويقه علم... والإخراج الإذاعي غير الإخراج التلفزيوني، وغير الإخراج المسرحي، وغير الإخراج السينمائي...

وللإعلام اليوم فنون تعد بالعشرات تقوم عليها -أو على بعضها- معاهد وكليات، فيها دراسات عالية وعليا. وإذا أردنا أسلمة هذه الفنون فلن يتحقق ذلك إلا بالمتخصصين القادرين على إيجاد البدائل الإسلامية لما هو واقع الآن".

علينا إذن أن نتقن كل هذه المفردات المكونة للخطاب الفني السينمائي، لكي نكسر الطوق ونتجاوز الحلقة المفرغة، ونوصل صوتنا إلى غيرنا، ممن وقعوا أسرى سماسرة التزوير والتزييف وقطاع الطرق الثقافية.

من أجل تحقيق هذه المقاربة وذلك التوازن، غدونا بحاجة ماسة إلى الفيلم والسهرة التلفزيونية والمسرحية والمسلسل والنشيد والرواية. لأننا بهذا -كما يرى الدكتور عماد الدين خليل- "سنغطي مساحة فارغة من الخطاب الفني والأدبي، وسنطرد الأعمال الرديئة ليس بمستواها الفني الصرف، وإنما بمضامينها الهابطة. وبمرور الزمن سينحسر الأسود لكي يأخذ الأبيض مكانه فيضيق الخناق عليه، وسيجيء اليوم الذي يجد فيه المسلم نفسه قادراً على تزجية الساعات الطيبة، قبالة أعمال أدبية وفنية ترضي ذوقه وأشواقه بصفته مسلماً، وتلبي حاجاته الجمالية والوجدانية بصفته مؤمناً". فإذا تدين رجل الفن، وتفنن رجل الدين، التقيا في منتصف الطريق لخدمة العقيدة القويمة والفن السليم.

روح الفن الإسلامي

فالفنان المبدع الموهوب هو الفارس المحبوب، الذي يحسن حرث الأنفس وريها وسقياها، وغرس القيم والجماليات والفضائل في ثناياها في وداعة وقناعة، تهدف إلى مشروع واسع وعريض ومعمق للتنمية الوجدانية لهذه الأمة، وفق هندسة دعوية رشيدة تبحث عن المساحات الفارغة من الحياة لتملأها بما ينفع الناس ويمكث في الأرض. "فالفن الإسلامي لم ينبثق من شعب معين أو بيئة جغرافية طبيعية معينة، وإنما انبثق عن رؤية دينية معينة، وهذا هو ما شكّل الملمح المميز الفارق الذي يحيل الفن الإسلامي فريداً في نوعه أو نسيج وحده".

وهنا ارتباط شرطي لازم بين هذا الطموح، وبين ضرورة تحقيق عدد من المقومات الأساسية، للتجسير بين أهل الفن وأهل الدعوة مثل:

- إحياء الذائقة الفنية المفقودة.
- إغناء المجال الفني بالأفكار والقصص والموضوعات الملهمة.
- تخليق جيل كامل من المبدعين وكتاب السيناريو والحوار، ذوي التصور الإسلامي والخيال الفني والأدبي الصحيح، المرتكز على مواهب عالية وغنية ومكتملة.
- تجميع الطاقات والمواهب الموجودة حالياً على الساحة، ومشاركتها في أعمال جماعية تحسن أسلمة الواقع وواقعية الإسلام.

وهناك العشرات من الأسئلة، التي ما زالت عالقة على محك البحث والتجريب في هذا الميدان الخطير، ميدان السينما خاصة والفنون بصفة عامة.

ولكننا نعوّل كثيراً على عزائم المجتهدين والواعين بأبعاد

القضية، الذين لن يتركونا كي نهرب، لكي نستجير من الرمضاء بالنار، ثم نجد أنفسنا في هذا الهروب الكبير، مطالبين بأن ندفع أجرة وقود النار وتكاليف أعباء الرمضاء في آن معاً.

هناك عوامل أصلية وفرعية، لا يمكن تجاهلها أو الهروب منها، أو مواجهتها بحلول ساذجة، أو أفكار سطحية، تبرز كلافتات وملصقات تسعدنا وتطامننا ونحن نقرأها لأول وهلة بضمائر مفتعلة ووجدانات منتحلة، ونحن في ذلك كالمختبئ خلف إصبعه، وكأننا عندما رفعنا شعار "الفن الإسلامي"، قد ملأنا الفراغ وقدمنا البديل الطيب. ونحن أول العارفين أن هذا الشعار ليس إلا "سدّ خانة" يدوّي من حولها الفراغ الرهيب، بل ويجلجل الخراب في كل الخانات من حولها.

القضية أكبر وأخطر وأبعد وأعقد من هذه الحلول وتلك التصورات المريحة التي نهدهد بها أمانينا، ولكنها سرعان ما تسلمنا إلى الحسرة والضياع، عندما نصحو من أحلامنا الجميلة لنتخبط على الدروب والسكك، بعدما تكون الأمور قد ازدادت قتامة وتعقيداً، ويكون عنصر الزمن قد أفلت منا، وأسلمنا إلى دوامات التردي والهوان على الله والناس.

ونحن على يقين من أن السينمائي المسلم، إذا وجد فإنه سيوجد لنفسه ألف وسيلة ووسيلة للتعبير عن مكنونه ومخزونه بصورة مشبعة وممتعة وصائبة وصحيحة دينياً ومهنياً، فأهل مكة أدرى بشعابها.

ونحن على يقين من إدراك الأجيال الصاعدة لخطورة الموقف وضرورة الاستباق الفني، ودخول معركة القفز على الحواجز واجتياز العراقيل وتخطي العقبات، ووضع السينما الإسلامية في موضعها الصحيح من سلم أولويات الحركة الإسلامية المعاصرة. ■

(*) كاتب إعلامي مصري.

المصادر

(١) الإسلام والفن، للدكتور يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة.
(٢) معلمة الإسلام، لأنور الجندي، دار الاعتصام، القاهرة.
(٣) أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، للدكتور يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة.
(٤) قيمة الفن والأدب، للدكتور عماد الدين خليل، مجلة الأدب الإسلامي، العدد: ٥٧.
(٥) مسرحية "صراع"، للدكتور أحمد الشرباصي، دار الرائد العربي، بيروت / لبنان.
(٦) الإسلام كبديل، للدكتور مراد هوفمان، مكتبة العبيكان، الرياض / المملكة العربية السعودية.

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

ليتنا من الشجر تعلّمنا..!

من الجنَّة هبطنا،
وبالطاعة ما امتثلنا،
وعندما الأرضَ نزلنا،
آثامًا وأحزانًا اقْترفنا،
وافترقنا،
وتجافينا...
فما اعتبرنا،
ولا من الدرس استفدنا...
ليتنا شجرًا كُنَّا،
ومنها تعلَّمْنا؛
أيدينا كأغصانها تتشابك،
وقلوبنا كجذوعها تتساند...
* * *

أُسُس البَوح

القاضي ولد محمد عينين *

مَضاميرُ بوْحِ الشعْرِ تَسْعىَ بها نفْسي   إلى مَوْطنِ الأحْلاَمِ بالموْكبِ القُدْسيِ

صَعدْتُ جِبالَ القَوْل حتَّى تتابَعَتْ   حَشاشاتُها تَهْوِي على مِعْزفيِ المنْسيِ

فهل ظمأُ الأعْصابِ إِذْ تركبُ الهوَى   يَرى أَنجُما تَعلو لها يَرْتَقى حسّيِ؟

على خُلُق المحْمُودِ حَمّلْتُ مَشْربيِ   وفرَّقتُ طيرَ السعدِ عن طائِرِ النحْسِ

أَجُرُّ سُطُورَ الذنْبِ في طيِّ سِفْرِهاَ   تُنادي رَفيعَ الصيتِ مِنْ مَوْقِعِ الهمْسِ

وإنْ رَسَمَ المكتوبُ أوتارَ لوعتي   شُتُولاً من الأزهارِ في بادئِ الغرْسِ

يَهُزُّ له التغريدُ أركانَ أحرُفٍ   تراعي سمينَ اللفظِ في معْرضِ الْجَسِّ

يداي بحدِّ الحِبْرِ تجلو له الندَى   ذكاةً لنار الشوق في سُنْدُسِ الرأْسِ

تَضيقُ عن الإجْلاَلِ ساحاتُ دَمعتي   وقد يضعُفُ التأْسيسُ من صَوْلةِ الأُسِّ

أَمَا كَتب الإشراقُ إعلاءَ قَدْرهِ   فلاذَتْ به العِلاَّتُ من غابةِ اليَأْسِ!؟

وعِطْرُ وُرود الرسلِ في رَعْشةِ الصدى   تتوقُ له الأرواحُ بالجنِّ والإنْسِ

كطيرِ تحدِّي الجدْبِ يَنْسَاقُ لَحْنُهَا   فَتَبْدُو بِهِ الْغَابَات مُزْدانةَ العُرْسِ

سِهامُ أريجِ الْهَدْي يَخْضَرُّ فِعْلُهَاَ   وتقْوى فِعال السهم من جودة التُّرْسِ

على حُجُبِ الساعاتِ نلْقى بفوحِهِ   صَفاءً يقودُ القلْبَ في مرْتَعِ الأُنْسِ

وتحضُنُنا الأنهارُ حتى تَعُمَّنَا   بَلاسمُ فَيْضِ الله بالأنْهُرِ الخمْسِ

عُقولُ رِكابِ الشمس سارت بنهجِهِ   وَأُخْرَى ترى في السيرِ مِقْلاعَةَ الضِّرْسِ

أرى نَفَسَ الإصباحِ يَنْساقُ بَعده   وإنَّ بقاءَ النومِ ضرْبٌ من المسِّ

تخالُ رحابَ الكونِ درْساً بهدْيِهِ   يَفرُّ إلى الإفْصاحِ من منطقِ اللّبْسِ

فهل مُقْرئُ الأوهامِ في عَتْمةِ الأنا   يُغطِّى صفاءَ الروح عن رَوْعةِ الدرْسِ؟

تُريقُ جِرارَ الصمْتِ أنخاب عِطْرهاَ   بحضْرَةِ ذِكْرِ النورِ من فائِق الشمْسِ

كأنَّ مقامَ الروحِ في ظِلِّ حَرفِه   حَمامٌ يصوغُ اليومَ من جنة الأمْسِ

ففضْلُ عُباب الختمِ غطَّي حضورَناَ   مُزيحاً عنِ التاريخِ أغطيةَ البُؤْسِ

يَصُدُّ رُجُوعَ الليلِ بعد انجِلائه   ويحمي دُروبَ الكونِ من موحلِ الرجْسِ

ستمْدحُه الذرَّاتُ مِنِّي وتنْتَشي   على صَهْوةِ الزرْقاءِ أو مَكْمَنِ الرمْسِ

(*) شاعر موريتاني. القصيدة الفائزة بالمركز الأول في فئة الكبار بمسابقة حراء الكبرى للمديح النبوي بموريتانيا بتاريخ ٢٠١٠/٢/٢٣



تربية الولد أم الوالدين

أ.د. هارون أوجي *

هل يغتاظ ولدكم منكم ويتحداكم باستمرار؟ هل يأبى أن يخبركم أين يغدو ويروح؟ هل يبدي سلوكاً متمرداً أو معانداً ليعلن عن عدم اضطراره للقيام بأي عمل في المنزل، ثم يلزمكم برعايته والاهتمام به لأنكم أنجبتموه دونما سؤاله؟ هل تتصادم معتقداتكم وقيمكم بمعتقداته وقيمه؟ هل يتّهمكم بعجزكم عن تلبية رغباته ومطالبه؟.. لعل القليل جداً من الآباء والأمهات سيجيب على هذه الأسئلة بـ"لا"، لأن المطالب والرغبات لدى كل ولد تختلف عن الآخر، وبالتالي قد يكون الولد يعاني من مشاكل في المشاعر والسلوك، لأنه لا يقدر -على سبيل المثال- أن يتفاهم مع صديقه أو أخيه أو أنه يريد دائماً شراء الأمتعة والملابس الجديدة أو أنه يملّ من المدرسة والواجبات المدرسية.. ولعله يصاحب أشخاصاً دون الأخذ برأيكم وتأييدكم، وربما ينزعج من تدخلاتكم في ميعاد نومه، وساعات استيقاظه، وأوقات مأكله ومشربه، وترتيب غرفته.. وربما لا يريدكم أن تدلوا بآرائكم في كيفية قضائه عطلة نهاية الأسبوع وأوقات الفراغ.

إن الإنصات الفعّال يحسّن الاتصال والعلاقة بين الولد والوالدين، ويسرّع نموّ المحبة لدى الولد تجاه والديه ويجعله يرتبط بهما ارتباطاً شديداً، كما ينشّط المشاعر المماثلة لدى الوالدين أيضاً. وهكذا يولد ودٌّ عميق واحترام متبادل بين الطرفين، لأن الإنصات الفعّال يعني اهتماماً بما يريد الولدُ التعبيرَ عنه، ويعني اهتماماً إيجابيا بالرسائل الخفية للولد.

فماذا تفعلونه أنتم في مواجهة هذه التصرفات؟ هل تفرضون على ولدكم الالتزام بأوامركم والانقياد لها ظناً أنها لمصلحته؟ هل تحذرونه بالتخويف والترهيب؟ أم تسعون إلى ضبط تصرفاته بإلقاء الدروس والمواعظ الخلقية وتقديم البدائل والحلول؟ أم تتبعون أسلوب المحاكمة والعتاب أو الذم والزجر وتعلنون عن عدم رضاكم عن السلوك والحركات التي يبديها؟ أم تسخرون منه وتستهزئون به وتلقّبونه بألقاب ليخجل ويكفّ؟ أم تقومون بالمدح المفرط والتشجيع الزائد له، والوقوف إلى جانبه ومؤازرته في كل حركاته وتصرفاته؟ أم تحللون أقواله وأفعاله وأفكاره، وتقوّمونها أمامه وجهاً لوجه؟ أم تجدون صعوبة في الإجابة على أسئلته وتهربون منها أو تضعون لها حدوداً؟..

كيف نتواصل؟

ولعل من الطبيعي أن يجيب الآباء على بعض هذه الأسئلة بـ"نعم". بيد أن هذه الأحوال تعيق التواصل بين الأبوين وولدهم. كما أن توجيه الأوامر من أجل الحصول على طاعته، يؤثر سلبياً على نموه ويؤدي إلى إحساسه بعدم احترام شخصيته واحتياجاته ومشاعره، وهذا يخلق عنده نوعاً من الغضب والتحدي وإبداء التصرف العدائي. وكذلك التخويف أو كثرة الأوامر والنواهي تجعل شخصية الولد انطوائية غير واثقة بنفسها، ونتيجة لذلك يتجه الولد ليس إلى التفكير الحر، وإنما إلى أن يظل متعلقاً بوالديه، سلبياً خجولا شاعراً بالدونية. فالأولاد لا يحبون سماع المواعظ ولا مواجهتهم بالأخطاء، لأن ذلك التصرف يجرح كرامتهم ويدفعهم إلى الشعور بعدم القدرة والكفاءة، وبالتالي الميل إلى العزلة أو الشعور بالدونية والوحدة النفسية. إن الانتقادات الموجهة إلى الأولاد تفقدهم الثقة بأنفسهم وتشعرهم بأنهم غير محبوبين.

ثم إن إلصاق الألقاب الجارحة لمشاعر الأولاد، والاستهزاء بهم وإحراجهم تخدش مشاعرهم وتؤثر على شخصيتهم تأثيراً سلبياً وتجعلهم يقومون بعكس ما يقال لهم ليُظهروا أنفسهم أنهم على حق. كما تُثير المماطلة وتغيير المواضيع والهروبُ منها، الظن بأننا لا نهتم بهم ولا نحترمهم وإنما نرفضهم.

التوازن في المدح والذم

إن المدح المفرط له تأثير سلبي على الأولاد كما ذكرنا، وإن الأولاد الذين اعتادوا على المدح باستمرار، يشعرون بعدم القبول أو الذنب عند العدول عن هذا المدح، كما أن من الأولاد من يخجلون أو لا يحبون أن يُمدحوا أمام زملائهم ورفاقهم.

إذن ماذا نفعل نحن الآباء والأمهات؟ كيف نعقد صلة وثيقة بيننا وبين أولادنا؟ كيف نؤثر فيهم؟ لقد قيلت أشياء متباينة كثيرة حول هذا الموضوع، لكن المسألة في هذا الصدد ترتكز على دعامتين أساسيتين. أولهما: "الإنصات الفعال" ومن ثم مساعدة الولد على الانفتاح، وإتاحة فرصة التعبير عن مشاعره، ومحاولة فهم العوامل الأساسية التي تؤثر على أقواله وأفعاله، ومساعدته على إيجاد الحلول بنفسه. وثانيتهما كيفية التحدث معه ومعرفة توصيل الأفكار والرغبات إليه، والتصرف تبعاً لذلك. أما هذا فيعتمد على استخدام "رسالة أنا" بدلاً من "رسالة أنت".

الإنصات الفعال

وقد يساعد "الإنصات الفعال" و"رسالة أنا"، على إقامة الصلة الوطيدة بين الوالدين والولد، حيث يفهم الطرفان مشاعر

بعضهما البعض. كما يكتسب الولد عبر هذين العاملين قيماً فاضلة مثالية؛ كالصدق والكرم والبر.. ويصبح مستعداً لتقبّل معتقدات أبويه بسهولة، إذ يُعتبر غرس هذه القيم والفضائل من أعظم المهمات والحقوق التي حملها الأبوان على عاتقهما. ولابد من أن ننوه إلى أن الولد يكتسب المعلومات عن قيمه ومعتقداته عن طريق مراقبة سلوك الكبار أو عن طريق الحوار المباشر معه أو أثناء حديثه مع زملائه في المدرسة أو مع غيرهم في البيئة التي يعيش فيها. لكن الأهم من ذلك كله، أن يكون الوالدان أسوة حسنة يتأسى بهما الولد مدى الحياة. فإذا كنا نحن الآباء نتحلى بحسن الخلق وصدق الحديث، وإذا اعتنقنا معتقداتنا الدينية بحق فلابد أن ينتهج الطفل نفس منهجنا. أما إذا تناقضت أقوال الكبار وأفعالهم، فلا يمكن للولد أو المراهق أن ينال منهم شيئاً يغذي به جانبه القيمي والعقائدي، لذلك لا مناص من تحويل الأقوال إلى أفعال ومنها إلى سلوك حتى يتحقق المقصد.

الإنصات مهم للغاية، لأنه يساعد الولد على التعبير عن مشاعره وعن مشاكله، ثم إن الإنصات الهادئ يبعده عن التوتر والانفعال، ويشعره بالاهتمام به وفهم ما يقوله. فكلما تحدث الولد ووجد قبولا واهتماما ضعفت المقاومة السلبية لديه وقل عناده. إن الولد يلجأ دائماً إلى أبويه ويشركهما في مشاعره وأحاسيسه كلما احتاج إلى شيء أو أراد غرضاً أو سئم وضجر من أمر ما. وإن عدم إظهار الاهتمام لما يقوله الولد وعدم تلبية مطالبه قد يؤدي إلى عواقب أسوأ من رفض الإنصات إليه، حيث تسوء العلاقات بينهما تدريجياً وتصل إلى درجة الانفصال في نهاية المطاف. وبالمقابل إن الوالدين اللذين يستخدمان طريقة الإنصات الفعّال ويحاولان فهم مشاعر الولد وما تعنيه رسالته، ثم يعيدان ما تلقوه منه بألفاظهما الخاصة بهما إلى الولد يلقون تجاوباً إيجابياً منه.

هنا لا يقوم المنصت (الوالدان) بنقل ما قاله السائل (الولد) وتقويم رأيه ولا يضيف شيئاً ولا سؤالاً من عنده، إنما يردّ فقط ما فهمه من رسالة المرسِل، ويحتفظ بمشاعره وأفكاره وتعليقاته الخاصة به. فعلى سبيل المثال، عندما يقول الولد عند وجبة العشاء: "لا أريد أن أتناول الطعام هذا المساء"، يسعى الوالدان إلى إقناعه بطريقة لينة ناعمة ويقولان له: "هيا تعال بسرعة، ينبغي أن تتناول ثلاث وجبات في اليوم الواحد، انظر، طبخْنا لك الأكلة التي تحبها". وإذا ما اتخذ الولد موقفاً أمام هذا الكلام وقال: "أكلتُ كثيراً أثناء الغداء، ولا أريد أن أتناول شيئاً"، عندها يبدأ الآباء بإلقاء الأوامر الحادة إذ يقولون: "هيا تعال فوراً لا نريد أي اعتراض"، بينما يبدي الولد تصرفاً عناديا ويقول: "لستُ جائعاً، ولن آتي إلى الطاولة". في هذه الحالة لن يستطيع الوالدان أبداً معرفة مشكلة ولدهم.

أما إذا تم استخدام أسلوب الإنصات الفعّال بدلاً من هذا التصرف عند قوله: "لا أريد أن أتعشى" وقيل له: "لا تريد أن تتناول العشاء هذا المساء إذن"، فسيرد الولد بـ"نعم، أشعر وكأن معدتي مملوءة"، وفي حال اتباع المنصِت أسلوب الإنصات الفعّال واستطراده بـ"أرى أنك متوتر اليوم" يجيب الولد: "لستُ متوتراً، بل خائفاً جداً" ويبدأ في البوح بمشاعره. فبذلك يتمكّن المنصت من إدراك المشكلة وفتح قنوات الاتصال مع ولده من خلال الإنصات إليه.

ماذا يحقق الإنصات الفعّال؟

لا يمكن قمع المشاعر المؤلمة وإزالتها بالتفكير بالأشياء الأخرى، اللهم إلا إذا أعرب عنها بصراحة؛ حتى الكبار إذا ما عجزوا عن إيجاد حل لضيقهم وضجرهم يلجؤون إلى من ينصت إليهم ويروّحون عن أنفسهم بذلك. إذن الإنصات الفعال أكبر مساعد لكشف المشاعر ولمعرفة مصادر الضيق.

الإنصات الفعّال يحسّن الاتصال والعلاقة بين الولد والوالدين، ويسرّع نموّ المحبة لدى الولد تجاه والديه ويجعله يرتبط بهما -أو بالمنصِت- ارتباطاً شديداً، كما ينشّط المشاعر المماثلة لدى الوالدين أيضاً. وهكذا يولد ودٌّ عميق واحترام متبادل بين الطرفين، لأن الإنصات الفعال يعني اهتماماً بما يريد الولدُ التعبيرَ عنه، ويعني اهتماماً إيجابيا بالرسائل الخفية للولد؛ في حين أنه طريق لتجاوز الحالات المتوترة بين الوالدين والأولاد، وكلما مورس الإنصات الفعال تحسنت العلاقات الأسرية وتقلصت الحالات المتشنجة. كما أن الإنصات للولد يحسّن إنصات الولد للأبوين. يقول المتخصصون: إن الآباء والأمهات يشكون دائماً من عدم استماع ولدهم إليهم.. وما هذا إلا انعكاس

الأولاد لا يحبون سماع المواعظ ولا مواجهتهم بالأخطاء، لأن ذلك التصرف يجرح كرامتهم ويدفعهم إلى الشعور بعدم القدرة والكفاءة، وبالتالي الميل إلى العزلة أو الشعور بالدونية والوحدة النفسية. إن الانتقادات الموجهة إلى الأولاد تفقدهم الثقة بأنفسهم وتشعرهم بأنهم غير محبوبين.

لسوء استماعهم لابنهم في الحقيقة. والجدير بالذكر أن الإنصات الفعّال يكسب الولد مهارة في معالجة المشاكل وتحليلها بنفسه، والتفكير بها، وإيجاد الحلول لها.

مفردات الإنصات الفعّال

إن مفتاح الإنصات الفعال يكمن في الرسائل غير اللفظية وفي الاتصال غير الشفوي الذي يرسله الأبوان لولدهما من خلال الابتسامة ولغة الجسم وملامح الوجه ونبرات الصوت. المعبرةِ عن الحنان والمحبة والود التي تنبعث بين الفينة والأخرى والتي تعبر عن الموافقة والتفهم لما يقوله الولد. إن أسلم طريق لامتصاص مقاومة الولد وعناده هي تخصيص وقت للإنصات الفعال له، فكلما تحدث الولد ووجد قبولا واهتماما ضعفت المقاومة السلبية لديه وبالتالي ازداد حباً وشغفاً بوالديه.

وعليه فإنه لا يستوجب كلُّ موقف أو كل علاقة بين الوالدين والولد الإنصات الفعّال، أو بعبارة أخرى قد لا يكون الوقت مناسباً للإنصات الفعّال. ولكن أنسب وقت للإنصات الفعّال هو وقت عدم تحقق حاجة الولد أو رغبته، أي وقت يعاني الولد من مشكلة. فغالباً ما يسعى الوالدان لحل مشاكل أولادهم بأنفسهم، إلا أن الصواب هو حث الولد على الاعتماد على نفسه وتشجيعُه على حل مشاكله بنفسه دون مساعدة الكبار.

وهكذا يُعدّ الإنصات الفعال خطوة ضرورية في التربية الإيجابية، ومرحلةً مهمة في حل مشاكل الولد وتفهّم مشاعره، كما يؤدي إلى تجاوب وتواصل وتفاعل إيجابي بين الأبوين وأولادهم.

"رسالة أنا" بدلاً من "رسالة أنت"

يطلِق الآباء والأمهات -بشكل عام- أمام مبادرة سلبية يبديها الولد رسالة "أنت" بعبارات "لا تفعل"، "إذا فعلتَ.."، "لماذا تذهب"، "اجتهد"، "عليك أن تكون أفضل".. يريد الأولاد بعد تفهم مشاعرهم أن يقوموا بتصرفات إيجابية وفق رغبات آبائهم. لابد أن ننوه هنا إلى أن جميع المشاكل لا تنشأ من قبل الأولاد فحسب، بل يمكن أن يكون الآباء أيضاً هم السبب في نشوب هذه المشاكل. إذ عندما يشعرون بالتعب أو الحزن والأرق والتوتر أو القلق، يسارعون إلى إظهار أحاسيسهم الحقيقية برموز صريحة واضحة مثل "أنا متعب"، "أريد الاسترخاء" وغيرها من التعابير التي تشير إلى "رسالة أنا".

ومنه فإن "رسالة أنت" تحرّض الولد على التمرد والعناد والتحدي، بينما "رسالة أنا" تؤدي إلى التجاوب والتواصل الإيجابي من الولد، كما أن بيان تأثرنا منه بصراحة، أكثر تأثيراً من توضيح سلوكه السيئ، لأن تصرفنا هذا يبين مشاعرنا تجاهه ويترك له حرية الاختيار في السلوك، ثم يساعده في إدراك معنى المسؤولية ومعنى تحملها. ونظراً لذلك فإن "رسالة أنا" ترمز إلى الصدق، وبالتالي تقود الولد إلى نقل مشاعره برسائل صريحة صادقة. وأما الفائدة العظمى من تلك الرسالة، فهي معرفة الولد أبويه بحق، ونمو العلاقة الحميمة الصادقة بينهما والبوح بالمشاعر العميقة. ونتيجة لذلك يقوم الأولاد بالتعبير عن هذه العلاقة بقول: "أمي وأبي كالأصدقاء معي. إنهما طيبان جداً. لعلهما يخطئان ولكني أحبهما رغم ذلك"..

وأخيراً، إذا كان الآباء والأمهات يحبون أولادهم بحق، ويريدون تربيتهم على المحبة والاحترام والمسؤولية والصدق، فإنهم مضطرون إلى تعلّم كافة السبل والمسالك التي تحقق لهم حياة فاضلة سعيدة كريمة، مليئة بالحب والأمن والسلام.. وإن كل ذلك بيد الآباء والأمهات وليس بيد سواهما.. ■

(*) جامعة إيجه / تركيا. الترجمة عن التركية: د. أماني عدلي علي.





لبن الأم

التغذية المثلى للرضيع

أ.د. زغلول النجار *

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾(البقرة:٢٣٣)

إن القرآن الكريم يؤكد بهذا النص أهمية الرضاعة الطبيعية من الأم الوالدة لمدة أقصاها حولان كاملان (أربعة وعشرون شهرا قمريا) ولذلك قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾(البقرة:٢٣٣). وهذا النص فيه من الدلالات الطبية والتشريعية ما يمكن إيجازه فيما يلي:

الدلالات الطبية

إن لبن الوالدة مناسب في تركيبه الكيميائي وصفاته الطبيعية وكمياته لحاجة الرضيع طوال فترة الرضاعة. ومن معجزات الخالق ﷻ أن هذا التركيب الكيميائي وتلك الصفات والكميات للبن الوالدة يتغير تلقائيا مع تغير أحوال الرضيع ووزنه، وهل هو مكتمل العمر الرحمي أو مبتسر، ومع احتياجاته الغذائية وحالته الصحية، بل مع مراحل الرضعة الواحدة من أولها إلى آخرها. ففي الأسبوع الأول من عمر الرضيع يحتوي لبن الوالدة على كميات أعلى من البروتينات، ومن كريات الدم البيضاء والفيتامينات، خاصة فيتامين (أ)، ومادة اللاكتوفرين المثبتة لعنصر الحديد حتى يستفيد منه الرضيع، وعلى كميات أقل من الدهون والمواد الكربوهيدراتية عن اللبن في الأسابيع التالية.

إن الدهون في لبن الأم هي دهون ثلاثية بسيطة، يسهل هضمها وامتصاصها مع كميات متدرجة من الأحماض الدهنية المشبعة والزيوت الدهنية الطيارة، وكذلك الكربوهيدرات وأغلبها سكر ثنائي بسيط يعرف باسم سكر اللبن أو اللاكتوز (Lactose) يسهل على معدة الرضيع هضمه وامتصاصه، ويحول بعضه إلى حمض اللبن (Lacticacid) في أمعاء الرضيع مما يساعد على امتصاص عنصر الكالسيوم اللازم لبناء عظامه. والأملاح في لبن الوالدة محددة بنسب يسهل امتصاصها وتمثيلها في جسد الرضيع، والفيتامينات في هذا اللبن الفطري كافية لتلبية كل احتياجات الرضيع طوال الشهور الستة الأولي من عمره، وفيه من الخمائر الهاضمة ما يعين معدته على امتصاص ما في الرضعة من مركبات كيميائية.

إن لبـن الوالـدة معقـم تعقيمـا ربانيـاً، ولذلـك فهـو خال تماماً من الميكروبات والفيروسـات ومن غيرها من مسـببات الأمـراض، خاصـة إذا كانـت الوالـدة من صاحبـات الأيدي المتوضئة والمحافظات علـى طهارة البدن والثياب والمكان، والحريصات على سلامة فلذات أكبادهن.

هذا بالإضافة إلى أن هذا اللبن الفطري جاهز للرضيع في كل زمـان ومكان، ودائم الطزاجـة، والوجود في درجة حرارة توائم المناخ المحيط به صيفا وشتاء.

في لبن الوالدة من المضادات الحيوية النوعية ومن مقويات جهاز المناعة ما يحمي الرضيع من كثير من الأمراض، خاصة أمراض الحساسـية (التحسس)، والإسهال، والنزيف المعوي، والمغـص وغيرها.. وعلى ذلـك فهو أفضل غذاء للوليد حتى تمام السنتين من عمره وإن كان بإمكان الأم إضافة قدر ملائم من الطعام المناسب، ابتداء من الشهر السادس من عمر الوليد.

فوائد الرضاع للمرضعة

إن الرضاعـة الطبيعية ليسـت فقط مفيـدة للرضيع، بل للوالدة المرضعـة أيضـاً، لأن الرضاعـة تسـاعد فـي تنشـيط إفرازات الغدد المختلفة في جسـدها مما يعين على استقرارها النفسي والجسـدي، وعلى وقف نزيف ما بعـد الولادة برجوع الرحم إلى حجمه الطبيعي وانطماره. هذا بالإضافة إلى أن الهرمونات المسؤولة عن إدرار اللبن، هي المسؤولة عن عملية تثبيط عملية التبويـض (إنتاج البيوضات) حتى لا تحمل الأم وهي لا تزال ترضـع لمـا في ذلك من أخطار صحيـة عليها وعلى رضيعها، كمـا يريحهـا ذلك من آلام الطمث وهي في مرحلة الإرضاع. وفوق ذلك كله لوحظ أن الوالدات المرضعات هن أقل إصابة بـالأورام السـرطانية -خاصة في الصدر وفـي المبيضين- عن كل مـن غير المرضعات، وغيـر الوالدات، وغير المتزوجات.

إن نشـاط مـخ المرضعـة أثنـاء الرضاعـة هو مـن الأمور المتعلقـة بنشـاط وظائـف الأعضـاء في جسـدها كلـه، حيث تنبعـث إشـارات عصبية مـن الهالـة الداكنة المحيطـة بحلمة الثـدي إلى الغـدة النخامية بالمخ عن طريـق العصب الحائر، فتفـرز هرمون البرولاكتين (Prolactin) الـلازم لإنتاج اللبن في الثدييـن عـن طريـق الخلايا المختصـة بذلك فـي كل منهما، كمـا أن عمليـة الرضاعة ذاتها، تنبه الغدة النخامية أيضاً لإفراز هرمـون الأكسيتوسـين (Oxytocin) المنشـط لعضلات الثدي، فتبدأ في الانقباض والانبسـاط من أجـل إفراز اللبن وتوجيهه إلـى الحلمـة. وعدم اسـتخدام هـذه الأجهزة التـي وهبها الله تعالى لجسـد المرأة، قد يكون فيه من الأضرار الصحية لها ما لا يعلمه إلا الله تعالى.

إن الانعكاسـات الإيجابيـة التـي تحققها عمليـة الرضاعة الطبيعية على نفسـية كل من الرضيع والمرضعة، والتي تتجلى فـي تقويـة الصلـة الروحية بينهما على أسـاس مـن التعاطف والحـب والحنان والارتبـاط الوثيق، هي من الأمـور الفطرية التـي أودعهـا الخالق ﷻ فـي قلب كل من الوالـدة والمولود، وبفقدانهـا يفقـد كل منهمـا مرحلة من مراحـل حياته تهبه من أسباب التوازن النفسي والعاطفي ما يجعله مخلوقا سوياً.

ولما كان للرضاعة في الحولين الأولين من عمر الوليد تأثير على صفاته الوراثية، أعطى القرآن الكريم الأولوية في إرضاع المولود للأم التي ولدته. فقال ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْـنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾.

والأمـر الإلهـي بالإرضـاع جاء بصيغـة المضـارع، إقراراً لاسـتمرارية هـذا الأمر لكل والدة أن ترضـع مولودها تحقيقا لدور الأمومة ولحق مولودها عليها. ولكن في بعض الظروف الخاصة التي لا تسـتطيع الوالدة أن ترضع فيها وليدها، صرح القـرآن الكريـم بـأن ترضع لـه أخرى، مـع بقـاء الأولوية في الرضاعة للأم الوالدة فقال تعالى: ﴿إِنْ تَعَاسَـرْتُمْ فَسَـتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾(الطلاق:٦).

ويفهم من النص الكريم أن تمام مدة الرضاعة هو حولان كاملان (أربعة وعشـرون شـهراً قمرياً)، لكن ترك الأمر لتقدير الوالديـن فقـال تعالى: ﴿فَـإِنْ أَرَادَا فِصَـالاً عَنْ تَـرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَـاوُرٍ فَلاَ جُنَـاحَ عَلَيْهِمَا﴾(البقرة:٢٣٣) على أن تمام الرضاعة هـو عامـان، وذلك في مقام آخـر بقوله تعالـى: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾(لقمان:١٤). وذلك لتباين مدة الحمل بين سـتة وتسـعة أشـهر قمرية (بيـن ١١٧-٢٦٦ يومـا) لقوله تعالـى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُـهُ ثَلاَثُـونَ شَـهْراً﴾(الأحقاف:١٥). فإذا ولد الحميل لسـتة أشـهر قمريـة كان واجبـاً إتمام مـدة الحمل والفصـال ثلاثين شـهراً قمرياً، ولكن إذا اكتملت فترة الحمل إلى تسـعة أشـهر قمرية، كان كافياً لفترة الرضاعة التامة واحد وعشـرون شهراً، لتكمل فترتا الحمل والرضاعة إلى ثلاثين شهراً.

أثبتت الأبحاث في مجال طب الأطفال -كما أشار الأستاذ الدكتور مجاهد أبو المجد- أن هناك ارتباطا وثيقا بين الرضاعة من منتجات الألبان الحيوانية المصنعة وغير المصنعة -خاصة

لبن الأبقار- وبين انتشار مرض الداء السكري بين الأطفال الرضع، وانعدام ذلك في حالات الرضاعة الطبيعية من الوالدة. وكان تعليل ذلك أن البروتين الموجود في لبن الأبقار، يؤدي إلى تكوين أجسام مناعية مضادة في دم الرضع دون العامين، لأن إنزيمات الهضم عندهم لا تستطيع تكسير البروتينات المعقدة في ألبان الأبقار، وأن هذه الأجسام المناعية تقوم بتدمير أعداد من الخلايا المهمة في بنكرياس الرضيع، من مثل الخلايا التي تقوم بإفراز مادة الأنسولين.

ولكن بعد تجاوز العام الثاني من عمر الوليد، فإن تناوله للبن الأبقار لا يسبب تكون مثل هذه الأجسام المناعية المضادة. ويفسر ذلك باكتمال نمو الغشاء المخاطي المبطن للجهاز الهضمي عند الوليد، والذي لا يتم اكتماله إلا بعد عامين كاملين من عمره، فتستطيع إنزيمات الهضم عنده تكسير البروتينات المعقدة في ألبان الحيوانات فلا تتكون أجسام مناعية مضادة لها. وهنا تتضح ومضة الإعجاز العلمي والطبي في قول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾.

كذلك أثبتت الدراسات العلمية أخيراً، أن ألبان الأنعام -خاصة ألبان الأبقار- تحتوي على عدد من الأحماض الأمينية تزيد بثلاثة إلى أربعة الأمثال على ما في لبن الأم، مما قد يؤدي إلى ارتفاع نسبة تلك الأحماض في دم الرضيع فيعرضه للإصابة ببعض الإعاقات الذهنية، ويؤدي إلى رفع نسب وفيات الرضع الذين يتغذون أساساً على الألبان الحيوانية غير المصنعة والمصنعة.

إن لبن الوالدة مناسب في تركيبه الكيميائي وصفاته الطبيعية وكمياته لحاجة الرضيع طوال فترة الرضاعة. ومن معجزات الخالق ﷻ أن هذا التركيب الكيميائي وتلك الصفات والكميات للبن الوالدة، يتغير تلقائياً مع تغير أحوال الرضيع ووزنه، ومع احتياجاته الغذائية وحالته الصحية، بل مع مراحل الرضعة الواحدة من أولها إلى آخرها.

الدلالات التشريعية

في قول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾، دليل على أن الأولوية في رضاعة المولود هي لأمه التي ولدته. وذلك لأن الدراسات المختبرية أكدت أن تفاصيل التركيب الكيميائي لألبان النساء يختلف من امرأة إلى أخرى. وهذا له تأثيره على نمو الوليد واتزانه العاطفي والنفسي، وإن الجهاز الهضمي للرضيع مهيأ أفضل تهيئة لهضم وامتصاص لبن أمه التي ولدته. ويفهم من النص الكريم أن الوالدات لسن فقط اللائي ولدن، ولكن تنزل المرضعة منزلة الوالدة فتصبح كل مرضعة والدة، مع بقاء الأولوية في الرضاعة للأم التي ولدت. ولما كانت المرضعة والدة كانت الحرمة من الرضاعة في الحولين الأولين من عمر الرضيع، لقول الرسول ﷺ: "يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب" (رواه مسلم). ولقوله ﷺ: "الرضاعة ما كان في الحولين" (رواه الترمذي)، وقوله ﷺ: "لا يحرم من الرضاعة إلا ما فتق الأمعاء من الثدي وكان قبل الفطام" (رواه الترمذي). وقوله ﷺ: "لا يحرم من الرضاع إلا ما أنبت اللحم وأنشأ العظم" (رواه أبو داود).

وقد أثبتت الدراسات العلمية أن تأثير الرضاعة على المولود طوال العامين الأولين من عمره في بناء جسده، وتكوين جهازه المناعي، وتشكيل شيء من صفاته الشخصية والوراثية ما يبقى معه إلى آخر عمره، ويبلغ من خطورته أنه يحلل له ويحرم من أمر الزواج، وذلك بسبب انتقال بعض العوامل الوراثية والمناعية من حليب المرضعة إلى جسد الرضيع واندماجها مع سلاسل المورثات في داخل خلاياه.

وهذه الحقيقة التي أثبتتها الدراسات المختبرية أخيراً قد سبق بها كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من قبل ألف وأربعمائة من السنين، وذلك بتحريم الزواج بين الذين اشتركوا في الرضاعة من امرأة واحدة خلال العامين الأولين من العمر، واعتبرهم الشرع إخوة من الرضاعة، كما اعتبر مرضعتهم أماً لهم بالرضاعة تنسحب عليها كل حقوق الأمومة ما عدا الإرث. ويحرم من هذه الصلة ما تحرم من الأمومة بالنسب، لأن التقارب في الصفات الموروثة بين الزوجين يؤدي إلى شيء من الاضطراب الذي ينحي بعض الصفات الإيجابية في المورثات أو يسود بعض الصفات السلبية مما يضر بالنسل ضرراً بليغاً. ■

(*) أستاذ علوم الأرض ورئيس لجنة الإعجاز العلمي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية / مصر.



توحيد الله

هو الحل العلمي للغز الكون والحياة

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي *

أيهما أسبق، أو ينبغي أن يكون هو الأسبق في حياة الإنسان الفكر أم السلوك؟

١- أعتقد أنه سؤال سهل غير معقد وأن من اليسير معرفة الجواب عنه لكل أحد. فما من شك أن السلوك إنما هو ثمرة الفكر والتصور، ومن ثم فالفكر هو الأسبق دائماً أو هو الذي يجب أن يكون الأسبق في حياة الإنسان.

وكلما كان الفكر أدق وأصوب، كان السلوك أكثر تناسباً مع جوانب الحياة وأقرب إلى تحقيق الأهداف المرجوة.

وعلى الرغم من أنهم يقولون "ما من قاعدة إلا ودخلها الشذوذ" فإننا لا نكاد نعثر على أي شذوذ أو استثناء عن هذه القاعدة.. إن الإنسان -أياً كان- ما دام عاقلاً سويّ النظر والتفكير، لابد أن يكون سلوكه -أياً كان- نتيجة تصور مبدئي وقرار فكري، مهما صغر

الموضـوع الذي يتعلق به السـلوك أو كبر، فتلك هي القاعدة.

٢- والآن، بوسعنا أن نطرح سؤالاً آخر: ما هو الموضوع الكلـي الذي تندرج تحتـه آلاف الجزئيات التي يتناولها الفكر الإنسـاني، ومن ثم يتعلق بها السـلوك وتغدو ساحة لنشاطات الإنسان تجاه ذاته وغيره؟

لا شـك أن هذا الموضوع الكلي إنما هو الكون والإنسان والحيـاة. فمهمـا كانت المسـألة التي يفكّر فيهـا أحدنا ليتخذ قراره السلوكي في حقها، فإنها لن تكون إلا واحدة من جزئيات هذا البيان الكلي الذي هو الإنسان والحياة وسائر المكونات.

وإذا كانت القاعدة التي بدأنا حديثنا هذا بالتذكير بها صحيحة وكلية، لا يدخلها ريب ولا شـذوذ، فإن من الضروري أن نبدأ فنسعى إلى فهم هذا البنيان الكلي الكبير، قبل أن نغرق أفكارنا في خضمّ جزئياته. فإن السعي إلى فهم أجزاء أو جزئيات شيء ما، قبل فهم الكل أو الكلي الجامع لأشتاتهما، سعي لا طائل منـه، بـل النتيجة هي أن يعـود صاحب هذا الحـق بتصورات زائغـة وفهـوم خاطئـة لتلك الأجـزاء أو الجزئيـات المتناثرة.

فإذا تجاوز الإنسـان مرحلة التصور والفهم، إلى السـلوك والفعل، ازداد أثر أخطائه اتساعاً. إذ تتحول من نطاق الأخطاء النظريـة إلـى الضـرر الواقعـي والتطبيقـي. ومن شـأن الضرر الواقعي أن يتسـع ويمتدّ، ثم لا يزال يتسـع ويمتد إلى مدى لا يعلم حدوده ومضاعفاته إلا الله ﷻ.

٣- أمـا الآن، فيحيـن أن نتسـاءل بجـدّ: مـا مـدى اهتمام علمـاء الاجتمـاع اليوم بهذه الحقيقة؟ وما هـو مظهر تطبيقهم لهذا المبدأ الذي فرغنا من بيان أنه مبدأ علمي سليم؟

إن علـم الاجتماع اليوم ليس أكثـر من مرآة تبرز حال كل أمة أو دولة، لتتجلى عليها الآثار السـلوكية للمذهب الفكري السائد في تلك الأمة. فهو تابع غير متبوع مقود غير قائد.

ومـن ثـم فإنه لم يحلّ إلى اليوم لأي من هذه المجتمعات أي مشـكلة على كثرة المشـكلات الاجتماعيـة وتنوعها، ولم يحقق لها أي خير على الرغم من شـدة افتقارها إلى شيء من الخير والإصلاح. والسـبب هو أن هذا العلم ينطلق في رسـم المجتمع من واقع سلوكي فرض نفسه، لا من فكرة تقوم على حياد القرار العلمي.

إذن لن نجد لأنفسنا من خير لدى علم الاجتماع، ولن نعثر في شيء من المذاهب السائدة فيه على ما قد ينجدنا لحلّ أي مشـكلة. ولذا فلا مناص من أن نعود فنواصل سـعينا إلى حلّ هذه المشكلة باستخدام القاعدة التي فرغنا من بيانها وعرفنا أنها الحق الذي لا ريب فيه. أي فلابد من أن نبدأ السعي إلى تحصيل تصور علمي سـليم لحقيقة الكون والإنسان والحياة، ومن ثم إلى معرفة قصة الرحلة الإنسانية والنهاية التي تنتظره في أعقابها.

ومهما كانت الأداة العلمية التي يمكن استخدامها للوصول إلـى هـذا التصور المتفـق مع العقـل والمطمْئِـن للنفس، فإن النتيجة لابد أن تتلخص في معرفة ما يلي:

هـذه الخليقـة تتسـم بالنظام الهـادف الذي يبـرز جلياً في كل مـا تنطوي عليه مـن دخائل وجزئيات وأجزاء.. إذن فلابد أنهـا من صنع صانـع ذي حكمة وتدبير.. ثـم إن هذه الخليقة بكل جوانبها وأجزائها وأنواعها، تتسم بالوحدة ضمن الكثرة. يبرز ذلك في دورانها الدائب على محور واحد لا يتبدل، كما يتجلى في تناسـقها المتضافر ابتغاء السـعي إلى غاية واحدة.. إذن فلابد أن صانعها ومدبرها واحد لا ثاني له. ولن تجد من برهان علمي على هذه الحقيقة أدقّ ولا أجلى من برهان قول الله ﷻ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾(الأنبياء:٢٢).

ثـم إن الوحي الإلهي تنزّل ليكسـب هـذا البرهان العقلي والعلمـي مزيـداً مـن التأكيـد والرسـوخ، وليضيـف إلى هذه المعلومـة كثيـراً من التفاصيل التي لا يمكن أن يسـتقل العقل وحده بكشـفها والوصول إليها، إذ هي داخلة في الغيوب التي لا تخضـع لوسـائل التجربة والحس، فلا مطمع في الكشـف عنها إلا بواسطة النص المُعْلِم بشأنها الشارح لتفاصيلها، على أن يثبـت بالبرهـان العلمي أن هذا النص إنمـا تنزل وحياً من لـدن صانـع الكون ومبدعه إلى من قد اختاره رسـولاً منه إلى النـاس، يبلغهم من خلاله جملة البيانات والتعاليم التي ينبغي أن يعرفوها عن الكون والإنسان والحياة.

ولـو أن الفلاسـفة اليونانيين أتمـوا معارفهـم العقلية التي أكـدت لهم ضـرورة وجـود الصانـع وكونه متصفـاً بالحكمة والعلـم والتدبيـر، بالإصغـاء إلـى الوحـي الإلهـي متمثلاً في النـص، أو النقل المتمم للعقل، إذن لمـا تاهوا ولما اضطربوا فـي تصورهم لهذا الإله الصانع، ولما توهموه مرة في العقول العشرة، ومرة في إلهين واحد منهما للخير والآخر للشر، ولما ذهبوا في تصور علاقة هذا الصانع بمصنوعاته مذاهب شتى.

وإن العجـب لا ينتهـي من شـأن هـؤلاء الفلاسـفة، كيف



إن الوحي الإلهي
يؤكـد أن المكونات كلها كانـت ولا تزال قائمة بإيجاد الله إياها ثم رعايته لهذا الوجود لحظة فلحظة، بحيث لو تخلى الله عنها لتفككت أجزاؤها وأجزاء أجزائها وذهبت هباءً ثم استحالت عدماً.

استطاعوا استعمال عقولهم في بعض الأمور إلى أقصى ما أمكنهم الوصول إليه من أغوارها البعيدة، وكيف عجزوا عن إدراك أمور أخرى إلى جانبها فلم يستطيعوا استعمال عقولهم حتى في الوصول إلى دراية سطحية لها!.. فعلى سبيل المثال؛ إن أي عاقل لا يعجز عن معرفة أن المسائل الغيبية التي لا تدخل في نطاق التجربة والحس، لا يستقل العقل وحده بمعرفتها معرفة صحيحة، بل لابد لذلك من تضافر كل من العقل والنقل معاً، غير أن أولئك الفلاسفة تاهوا عن هذه الحقيقة وعجزت عقولهم عن التنبه إليها، فحمّلوا عقولهم عبء كل من العقل والنقل معاً، وكانت النتيجة أن أورثتهم عقولهم -بدلاً من العلم بها- القلق والاضطراب، ولم تأت إليهم بأي طائل. ولقد ظلت هذه الآفة عالقة بالفكر الفلسفي، حتى جاء الفلاسفة الإسلاميون بكل فئاتهم، فنبهوا إلى هذا الخطأ الكبير وأبرزوا القسمة العادلة في منهج البحث بين كل من العقل والنقل، في بحوث مستفيضة تعد بحق من أبرز مزايا الفلسفة الإسلامية، ومن أهم ما استدرك به العلماء والفلاسفة الإسلاميون على الفلاسفة الإغريقيين.

٤- والآن، ما هي الصورة التي عدنا بها عن هذه الموجودات المتمثلة في كل من الكون والإنسان والحياة، بعد أن اعتمدنا في السعي إلى فهمها على كل من صريح العقل وصحيح النقل؟

لقد علمنا أن هذه الموجودات في مجموعها، كل واحد متناسق، وأن الإنسان في داخل هذا الكلّ أشبه بالنواة القائمة في داخل الخلية. فما تتحرك هذه الأجرام الكونية، ماضية في أداء مهامّها، إلا حول محور الإنسان، وما تسعى إلا في خدمته ولرعاية مصالحه.

أما الإنسان ذاته، فهو أكرم مخلوق على الله ﷻ، متّعه بظلال من صفات ذاته العلية، لتؤهله لعمارة الكون والخلافة عن الله في إقامة موازين العدل ورعاية الأسرة الإنسانية على خير وجه، وهو الوجه الذي ارتضاه الله ﷻ لها.. وقد أنبأه الوحي الإلهي بقصة نشأته وكيفية تكاثره فوق هذه الأرض، وأكد له خبر النشأة الثانية بعد الموت والجزاء العادل الذي أعدّ له على كل ما قد قدّمه في حياته الدنيا من خير وشر، كما أكد له أن هذه الحياة التي يعيشها اليوم ليست إلا ممراً إلى مقرّ.

٥- ونظراً إلى ما أثبته كل من العقل والنقل من أن الصانع لهذه المكونات والمتصرف فيها واحد لا ثاني له في ذاته وصفاته، فلابد من اليقين بأن شيئاً من هذه الموجودات لا يستقل بأي قوة أو تماسك، بل لا يستقل بأي وجود ذاتي لا ابتداءً ولا دواماً. إذ لو استقل بشيء من ذلك في لحظة من اللحظات، منفصلاً عن المبدع والصانع، لكانت ثمة قوة غير قوته، تفعل فعلها منفكة عنه ودون احتياج إليه. ولابد أن تكون هذه القوة عندئذ قوة إله آخر قد استقل بمقومات الألوهية كاملة غير منقوصة. وهو ما قد رفضه العقل اعتماداً على أوضح الحجج والبراهين، وهو ما جاء النقل أيضاً برفضه والكشف عن تهافت القول به.

إن الوحي الإلهي يؤكد أن المكونات كلها كانت ولا تزال قائمة بإيجاد الله إياها ثم رعايته لهذا الوجود لحظة فلحظة، بحيث لو تخلى الله عنها لتفككت أجزاؤها وأجزاء أجزائها وذهبت هباءً ثم استحالت عدماً.

تأمل في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ﴾(فاطر:٤١)، وفي قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾(الروم:٢٥)، وفي قوله: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى

ذَاتِ أَلْـوَاحٍ وَدُسُـرٍ ۞ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾(القمر:١٣-١٤)، وفي قوله سبحانه: ﴿بِسْـمِ اللهِ مَجْرَاهَـا وَمُرْسَـاهَا﴾(هود:٤١)، وفي قوله سبحانه: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾(البقرة:٢٥٥)، ومعنى القيوم: القائم على الدوام بشأن المخلوقات بحيث لو تخلّى عنها لحظة لانهار وجودها وانتهت إلى عدم.

إذن، فلا وجود لما يسـميه الفلاسـفة، ويقلدهم في ذلك المعتزلـة بالقوة المودعة في الأشـياء أياً كانت هذه الأشـياء، جامدات أو نباتات أو حيوانات، لأن تصور كون القوة مودعة فيها يعني اسـتقلاليتها في التصرف، وهو إقرار بمعنى واضح مـن معانـي الألوهية لهـا، وهو يناقض وحدانيـة الله وألوهيّته التي ثبتت بكل من دليلي العقل والنقل.

٦- فإذا تشـبع الإنسـان بفهم هـذه الحقيقة، وفاضت من عقلـه إدراكاً ويقينـاً على وجدانـه اصطباغاً وشـعوراً، تحقق عندئذ بتمام معنى العبودية لله تعالى، إذ يدرك أن لا موجد ولا معدم ولا ضار ولا نافع ولا محرك في الكون كله إلا الله ﷻ. ويعـود إلى ذاته فلا يراهـا إلا مظهراً، بل نموذجاً لهذا العجز الكونـي العـام، وإنما هو فـي غدوّه ورواحه وتحركه وسـائر تصرفاته وأعماله أشـبه ما يكون بشاشـة الاستقبال، إن انقطع عنها الإرسال عادت شيئاً هامداً جاثماً لا معنى بل لا وجود له.

٧- غيـر أن الإنسـان يملـك شـيئاً واحداً بتمليـك الله له وتفضلـه بـه عليه، ألا وهـو حرية اتخاذ القـرار والقدرة على العزم على فعل ما يريد. وهي هبة حقيقية أكرم الله بها الإنسان ومتعـه بهـا، لا مجـال لإنكارهـا أو الارتياب فيهـا. والحس والتجربة خير شاهدين على ذلك. هذا هو العلم بأن رعاية الله مسـتمرة للإنسان ليسـتمر متمتعا بهذه الملكة الهامة، كما أن رعايته للإنسان مستمرة لبقائه متمتعاً بسرّ الحياة والوجود.

هذه الملكة التي يمتع الله الإنسـان بها هي مناط التكليف وأساسـه. فقصد الإنسـان إلى الشيء وعزمه عليه هما مصدر الثـواب أو العقاب. أما ما يتبع ذلـك من الأفعال والحركات العضوية فمجرد مظهر وشـاهد على القصد والتوجه القلبي، يخلقها الله في الإنسان عند توجهه إلى الفعل الذي يريد.

٨- فإذا تكاملت هذه الصورة في وعي الإنسان، وتحولت إلى تصديق راسخ مبني على البرهان العلمي، فإن من المنطقي والطبيعي أن تنعكس على نظام الهيئة الاجتماعية، وأن تسـير حياة الناس في علاقاتهم المتبادلة ووجوه أنشطتهم المتنوعة، وفق هذا التصور الذي تحوّل إلى تصديق علمي راسخ.

ولا شـك أن من أهم الأخطاء التي لابد أن تترك سلسـلة مـن الآثار السـيئة على حياة الناس الفرديـة والاجتماعية، أن ينهض المجتمع الإنسـاني أو ينهض عمـل أي فرد فيه، على ما يناقض أو يخالف تلك الصورة العلمية الثابتة لواقع الكون والإنسان والحياة.

وبوسـعي أن أقرر جازماً أن سـائر الصور المأساوية التي تفـور بها المجتمعات الإنسـانية اليوم، من طبقيـة تفرز ألواناً مـن الاسـتغلال بل الاسـتعباد، وعـدوان يدفع إلـى حروب طاحنة وإلى تربص الإنسـان بأخيه الإنسان، وأنانية مستشرية تمزق أوصال الرحم الإنسـانية وتحيل صفاء المودة إلى كيد وأحقاد.. هذه الصور المأساوية كلها ليست إلا نتيجة طبيعية للتشـاكس، بـل للتناقض القائـم بين الحقيقة والسـلوك.. أي بيـن ما هو ثابت ومعلوم من قصة الكون والإنسـان والحياة، ومـا يختـاره الناس لأنفسـهم مـن أنماط السـلوك والأصول والعلاقات الاجتماعية، بعيداً عن محاولة أي توفيق بين تلك الحقيقة الثابتة وهذه الأنماط السلوكية التي تقودها الشهوات والأهواء.

٩- ومـا مـن ريـب فـي أن أقصـر وأنجع عـلاج للقضاء على هذه المآسـي كلها، إنما هو مراجعة ما استقر في أذهاننا عـن حقيقـة هذا الكون الـذي نعيش فيه، وقصـة رحلتنا التي تتـم في خضم هذه الحياة، وكنس الأوهـام والأخيلة الباطلة التي تختفي وراء أقنعة العلم وعناوينه؛ ثم إعادة ترسـيخ هذه الحقيقـة العلمية التي لا مردّ لهـا، والتي تضافر على تأكيدها العقـل والنقـل. فإذا سـاد اليقين بهـا، ثم تم ترسـيخها تربية وتعليمـاً في قطاعات الناس وفئاتهم، نشـأ على أعقاب ذلك مجتمع إنساني سليم مبرّأ من تلك المآسي كلها:

• لن تسـوده الطبقية المسـتغلة أو المسـتعبدة، لأن اليقين بوحدانية الله تعالى يجعل منهم -على اختلاف طبقاتهم- عبيداً لله متحابيـن ومتآخين. فهم وإن تفاوتت فيما بينهم الدرجات والرتب، لا يشـعرون إلا بأنهم سواسـية في ظل عبوديتهم لله وحاجتهم الماسّـة إلى رحمة الله. فهم في ذلك مظهر تطبيقي لقول الله ﷻ: ﴿نَحْنُ قَسَـمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَـتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾(الزخرف:٣٢).

• ولن يسوده تسلط ولا عدوان، لأن اصطباغهم بمعنى وحدانية الله أورثهم يقيناً جازماً بأن لا قوة في الكون إلا قوة الله ولا نافع ولا ضارّ إلا الله ﷻ. ومن شأن هذا اليقين أن يحرر الضعفاء من سلطان المستكبرين ويرقى بهم إلى صعيد الكرامة الإنسانية الصافية، وأن يحطّم شموخ المستكبرين وطغيانهم ويهبط بهم إلى صعيد العبودية لله ﷻ. وتنظر، فإذا الكل متساوون متواسون، لا يسمو واحد على صاحبه إلا بالتقوى والعمل الصالح... ولن تجد مظهراً يجسّد هذه الحقيقة في كتاب الله ﷻ مثل حديثه عن سحرة فرعون، كيف جعلهم الشرود عن معرفة أنفسهم والكون الذي حولهم أذلّة صاغرين، ثم كيف حرّرتهم معرفتهم لأنفسهم وتوحيدهم للخالق ﷻ من ذلك الذل والصّغار، وسمت بهم إلى حيث يهزؤون بفرعون وسلطانه ويستخفون ببطشه وطغيانه. انظر إلى قوله ﷻ: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ۞ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ۞ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾(طه:٧٠-٧٣).

• ولن تمزقهم فرقة، كما لن تتوازعهم دوائر الأعراق والأقوام والشعوب واللغات.. لأن اجتماعهم على اليقين بوحدانية الله، ذاتاً وصفات وأفعالاً، يشدهّم إلى معنى الأسرة الواحدة التي تحيا وتتحرك تحت مظلّة البر برب هذه الأسرة. وإذا كان المجتمع الإنساني أسرة واحدة في الحقيقة، فلا شك أن ربها هو الله ﷻ. ومن الطبيعي بل من الضروري في ظل هذا الشعور الوحدوي الجامع، أن تذوب بينهم فوارق الأعراق والألوان والشعوب واللغات.

وأنا ألفت النظر إلى أنني أقول: تذوب فوارق الأعراق.. إلخ، ولا أقول: تذوب الأعراق والألوان.. نفسها. وفرق كبير بين دلالة التعبيرين. إن شعور الإنسان بمعنى عبوديته لله ﷻ وتحققه بهذه الهوية وبالنسبة إلى أعضاء الأسرة الإنسانية الواحدة، ليس من شأنه أن يذيب تعددية الأقوام أو اللغات أو الشعوب.. ثم يصهرها ويصبّها في قالب بشري واحد ينطق بلغة واحدة وينتمي إلى عرق واحد أو ينحدر من سلالة واحدة، فإن هذا باطل من التصور والقول.. بل هو يناقض النظام الذي أقام الله عليه هذه الخليقة من عباده. فقد قضى الله ﷻ أن يكونوا كثرة في الأعراق والألوان والشعوب واللغات، على أن تحتضن كثرتهم هذه وحدةٌ عامة شاملة يجسّدها سلطان العبودية لله الواحد الأحد، ويجمعها نسق السير على ما يرضي هذا الإله وحده.. فهم في تلك الكثرة المشمولة بسلطان هذه الوحدة أشبه بالأغصان الكثيرة المتشعبة تتفرع عن جذع واحد، وتأخذ غذاءها وقانون نموّها وتماسكها من أصل راسخ واحد. وما أجلى هذه الحقيقة وأجمعها في قول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾(الحجرات:١٣).

• ثم إنهم لن يؤلّهوا طبيعة ولا مادة، ولن يستخذوا أمام أي من الشهوات والأهواء، لأن عبوديتهم الصادقة لله ﷻ تجعلهم لا يقيمون وزناً لغيره أياً كان.. إن الطبيعة والمادة، بكل ما قد يكون لها من أنظمة وقوانين، جند من جنود الله تعالى، يحرّكه لحظة فلحظة كما يشاء.. والأهواء والشهوات إن هي إلا عناوين فتنة وابتلاء، يستبين تحت فتنة حرّها الصادقون في عبوديتهم لله، إذ يلوذون بلطفه ويفرّون إلى حصن حمايته، فإذا حرّها المتأجج بردٌ وسلام، ويتميز الكاذبون في دعوى هذه العبودية، إذ يقبعون تحت أسرها ويستسلمون لأعاصيرها، فإذا الإله الحقيقي الذي يدينون له بالعبودية والولاء، إنما هو هذه الشهوات والأهواء. لا ربها وخالقها الذي جعلها لعباده مادة امتحان وابتلاء. وجلّ من قال في محكم كتابه: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾(الفرقان:٤٣).

• ولكنهم في الوقت ذاته لا ينفضون أيديهم من استخدام ما سخّره الله لهم، وجعله طوع سلطانهم العقلي ثم العضلي، وأمرهم أن يتخذوا ذلك كله جنداً لهم في عمارة الأرض بأوسع معانيها الحضارية، كما حذّرهم من أن يتعدوا أو يتنكروا للفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها فيحرّموا حلالاً أو يضيّقوا على أنفسهم واسعاً أو يزهدوا فيما امتن الله عليهم بتمتيعهم به. فهم -وقد أيقنوا بوحدانية من بيده كل شيء، واصطبغوا بأتم معاني العبودية له والافتقار إليه-

يظلون يعبّرون عن فقرهم إليه بمد الأيدي إلى عطائه والتقلب في كل ما يرد إليهم من نعمائه. ولا ريب أنهم بذلك خير من يدرك معنى قوله ﷻ: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾(سبأ:١٥)، ثم يتفاعل معه ويستجيب له عبودية وشكراً. ولقد ورد في ترجمة "معروف الكرخي" رحمه الله أنه كان لا يحرم نفسه من التمتع بالطيبات التي يكرمه الله بها. فإذا جاء من يذكّره بالزهد قال له: "إنما أنا ضيف عند ربي، إن أطعمني أكلت وإن منعني صبرت"، ولعمري لا يستبين الفقر إلى الله إلا عند مد يد الحاجة إلى عطاء الله. فمن كفّ يده عن الطلب من الله تعالى تعففاً وزهداً، فقد حاول بذلك أن يثبت عدم افتقاره إلى الله، وهيهات أن يستقيم له ذلك.

تلك هي الآثار التربوية والاجتماعية التي لابد أن يثمرها اليقين بوحدانية الله ﷻ. ومن مجموع هذه النتائج والآثار يتكون المجتمع الإنساني السوي والسليم، ويتكامل بناء الحضارة الإنسانية المثلى.

ومهما ظل الناس شاردة أفكارهم وتصوراتهم عن التنبه إلى الحقيقة الكونية التي لا تخفى على من سلّط عليها أشعة النظر العلمي المتحرر، ذاهلة عقولهم عن أن هذه الكثرة الكونية إن هي إلا ضغث في قبضة رب العالمين وحده يرعاه ويتصرف به كما يشاء، فلسوف يبقى لغز هذا الكون مستعصياً عن الحلّ مهما تفرعت واتّسعت بحوث العلماء، ومهما تعمقت نظرات الفلاسفة وعلماء الاجتماع. ومن ثم فلسوف تبقى المشكلات الإنسانية المختلفة في تفاقم وازدياد.

وإن في مآسي الدنيا التي من حولنا، والنُذر التي يمتد ضبابها وراء بريق المدنيات والحضارات، والضيق الذي ينتاب الصدور، والأمراض التي تجتاح الجسوم والنفوس، دون أن يتبدّى بريق أمل في إمكان التخلص من هذه الآفات، لأكبر شاهد على ما نقول.

تلك هي آيات الله في الآفاق.. وها هي ذي آيات الله في أنفسنا.. اجتمعت لتكون شاهد صدق على أن هذا الكون كله إنما هو مملكة الله، لا حكم فيه إلا لله، ولا أمل في الوصول إلى الخير الحقيقي والسعادة الاجتماعية المثلى إلا بالاصطلاح مع الله. فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟ ■

(*) كلية الشريعة، جامعة دمشق / سوريا.





ندوة دولية في العاصمة الأردنية

حول التجربة التركية

نور الدين صواش *

شهدت العاصمة الأردنية عمان في ١٦ يناير ٢٠١٠ ندوة دولية بعنوان "رؤى معاصرة للإصلاح الإسلامي ودورها في تعزيز السلام العالمي.. تجربة فتح الله كولن التركية نموذجاً" عقدتها مجلة حراء بالتعاون مع المنتدى العالمي للوسطية بمشاركة كوكبة من الأكاديميين والمثقفين من بلدان مختلفة من العالم العربي والإسلامي مثل مصر والمغرب والجزائر والأردن والكويت والسودان ولبنان والسعودية واليمن وتركيا والسنغال. وقد تناولت الندوة في جلساتها طيلة يوم كامل التجربة الإصلاحية التركية بأبعادها الاجتماعية والتعليمية والثقافية مع التركيز على تجربة فتح الله كولن التركية وجوانبها المختلفة التي تمثل نموذجا ناجحا في العمل المدني الإصلاحي داخل تركيا وخارجها.

وقد ركز المشاركون على أهمية العمل الإصلاحي الإيجابي البناء الذي يسعى إلى بناء الإنسان والذي يهتم بالفكر الوسطي والعمل المجتمعي، ومن ثم ينبذ العنف كوسيلة للعمل ويفعّل جهاز التربية والتعليم في إحياء الأمة وتحقيق نهضتها. كما أكد المشاركون على ضرورة إنتاج خطاب إسلامي مستنير يهدف إلى تعميم الفهم السليم للإسلام وقيمه وتشريعاته، بالإضافة إلى تأكيدهم على الثقة بالهوية الإسلامية في الانفتاح على العالم واحترام الآخر كمنهج فكري عملي، وبالتالي دراسة الجانب التربوي والتعليمي والإعلامي والصحي في تجربة الأستاذ فتح الله كولن الإصلاحية.

وعليه فإن الندوة تضمنت أربع جلسات تم فيها مداولة جوانب شتى للتجربة المدنية في تركيا والتي انبثقت من أفكار المفكر العالم فتح الله كولن.


مصطفى أوزجان


المهندس مروان الفاعوري


الإمام الصادق المهدي

الجلسة الافتتاحية

استهل حفل الافتتاح بعرض فيلم تعريفي عن مجلة حراء قدم تصورا عاما عن فلسفة حراء وآفاقها العلمية واستشرافاتها المستقبلية، ثم ألقى المهندس مروان الفاعوري الأمين العام للمنتدى العالمي للوسطية كلمة أكد فيها أن التجربة التركية التي تمخضت عن أفكار العلامة فتح الله كولن، تجربة رائدة من تجارب العمل الإصلاحي حيث تسعى إلى إقامة صرح الروح ليكون بناءً شامخاً ترتوي منه الإنسانية وتجد فيه الجمال والأمان والظل والطهر. وأكد الفاعوري في كلمته أن الأستاذ كولن عزم على تحويل الكلمات إلى حركات حية، وقرأ واقع أمته وأمعن النظر فيه، فأيقن أن لابد من ولادة جديدة لهذه الأمة تستعيد بها نهضتها وتعود بها إلى سابق عزها، مشيراً إلى أنه "لابد من ولادة جديدة في فهم الدين وإحياء العلوم، تستنهض الهمم وتحيي العزائم لإقامة صرح حياة صحيحة تستجيب لحاجات الإنسان وأشواقه، ولادة شعارها: "الحياة في سبيل الله أسمى أمانينا".

كما بيّن فضيلة الأستاذ مصطفى أوزجان رئيس الوفد التركي في كلمته أن إفلاس المدارس الفلسفية الوضعية في القرنين الأخيرين أدى إلى عدم المقدرة على تحقيق السعادة للبشرية التي هي بحاجة لمن يحقق لها السعادة المطلوبة، حيث قال: "البشرية كافة في حالة بحث عن مخرج، تبحث عن من يحقق لها الاستقرار الجسدي والسعادة القلبية والروحية في هذا العالم". كما أفاد أوزجان نقلاً عن الأستاذ فتح كولن، أن الحل الأساسي لكل مشكلات البشرية هو "السيرة النبوية"، وواصل كلامه بالإشارة إلى الهمّ الذي يحمله الأستاذ كولن إذ قال: "البشرية في أمس الحاجة إلى الرسالة المحمدية، ونحن أبناء هذا القرن لا يمكن أن نفهم هذا النبي العظيم الفهمَ الصحيح، ولا يمكن أن نلبي مطالب البشرية؛ الروحية والقلبية والعقلية والفكرية والجسدية، إلا بعد أن نقتبس النور من تلك الشخصية العظيمة ﷺ. فنحن إذا استطعنا أن نبعث الفضائل الخيرة الموجودة في داخل الإنسان وننمّيها، فهذا سيشكل لنا وللإنسانية جمعاء مستقبلاً مشتركاً مشرقاً.. ولا يمكن أن نبعث هذا الخير في قلوب كافة الإنسانية إلا من خلال الاهتمام بتربية الأجيال وتعليمهم".

وألقى دولة الإمام الصادق المهدي رئيس المنتدى العالمي للوسطية كلمة بيّن فيها أن تجربة المصلح الكبير فتح الله كولن تجربة ثرية تحاشت النزاع على السلطة وركزت على كسب العقول والقلوب وبسط الخدمات الاجتماعية وتشبيك المصالح الحياتية للناس.

ومنه فقد تحدث رئيس جامعة صنعاء الدكتور خالد طميم عن التجربة التركية مؤكدا أن الأستاذ "كولن" نهل منهجاً علمياً مميزاً، ودرس الرؤية الإسلامية التي تصلح لكل زمان ومكان، واستطاع أن يتجرد من الانغلاق والانكفاء الفكري. كما وصف "طميم" أن فتح الله كولن لم يختلق عداء مع السلطة، بل أنشأ وئاما معها، وذلك لإدراكه بأن دخول الصراع لن يحقق نجاحاً لهذه التجربة. وقال طميم "إن المنهج العملي في التعليم جعل من هذه التجربة ذات جودة عالية"، مبرزا أن المجتمعات الإسلامية قادرة على الإبداع وإنتاج المعرفة العلمية في كل نواحي الحياة إذا سارت على المنهج الصحيح.

هذا وقد نوه الدكتور محمد راتب النابلسي في كلمته بدور تركيا في الدعوة حيث وصفها بـ"الدعوة الصامتة" لاستطاعتها إقناع الآخر بقيم ومبادئ الدين الإسلامي بالحكمة والموعظة الحسنة، إذ أشار النابلسي إلى أن "الإسلام اليوم في عصره الدعوي الذهبي"، مؤكداً "أن العالم كله سيركع أمام المسلمين، لا لأنهم أقوياء، ولكن لأن خلاص العالم في الإسلام".


أ.د. خالد طميم


د. محمد راتب النابلسي


أ.د. عبد السلام العبادي


نوزاد صواش


أ.د. سليمان عشراتي


د. سمير بو دينار

الجلسة الاولى

ناقشت الجلسة الأولى التي ترأسها معالي الدكتور عبد السلام العبادي وزير أوقاف الأردن العديد من القضايا الجوهرية في عملية الإصلاح حيث بيّن الدكتور عبد السلام العبادي في كلمته الافتتاحية أن "تجربة فتح الله كولن استمدت طاقتها من صميم المصادر الإسلامية الأساسية"، مؤكداً على أصالتها، مشيراً إلى أن التجربة إنما هي "عملية متكاملة للتبليغ والدعوة والتعامل مع هذا الدين في ضرورة تعريف المسلمين -أولاً- به فهماً وتطبيقاً وسلوكاً ثم الإنسانية جميعاً".

وقد قدم نوزاد صواش المشرف العام على مجلة حراء ورقة عمل بعنوان "فتح الله كولن، الشخصية والرؤية" موضحاً أن "الأستاذ كولن شخصية قد تحولت إلى مدرسة وتجاوزت موضوع الشخصنة". كما لفت صواش نقلاً عن الأستاذ "كولن"، أن الهزيمة التي عاشتها الأمة الإسلامية كانت هزيمة إنسان، والحل الأساسي يكمن في بناء الإنسان من جديد، كما أن هذا البناء لا يتحقق إلا بقراءة القرآن والسنة النبوية والزمان بشكل صحيح، مضيفاً أن الأستاذ فتح الله دعا إلى إنشاء ما سماه بـ"ورثة الأرض" مشخصاً القضية بقوله: "إن العالم في أمس الحاجة إلى الإسلام، والإسلام في أمس الحاجة إلى من يمثله بحق.. الآذان شبعت، العيون جائعة". وفي نهاية كلمته نبه نوزاد صواش إلى أن تجربة فتح الله كولن "ليست بديلاً عن أحد، وليست بديلاً لأحد، إنما تستفيد من الخبرة أينما كانت وتحاول أن تفيد الجميع وتتقاسم خبرتها مع الجميع".

وتحدث الدكتور سليمان عشراتي من الجزائر في ورقته عن "معرفة التاريخ وإحداث النهضة من منظور فتح الله كولن" مؤكداً أن صناعة التاريخ بطولة، والتاريخ في كل أطوار الإنسانية صنعه الأماجد الشجعان الفرسان، وأن فتح الله كولن بطل هذا العصر. كما أكد أن نظرة الأستاذ فتح الله للتاريخ نظرة موضوعية، وهو يعتبر التاريخ أحد المحركات الأساسية للنهوض، ويعتبر قراءة التاريخ، فقهاً مدنياً يعبّئ الأمة بالوعي الذي يجعلها تختار الطريق الأنسب لها.

وقد قدم الدكتور سمير بودينار مدير مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية في المغرب ورقة تحت عنوان "الرؤية التربوية عند فتح الله كولن"، مركزاً فيها على أمرين أساسيين في مشروع التربية أولهما نظرة المشروع إلى الإنسان، وثانيهما رؤية هذا المشروع لعملية بناء ذلك الإنسان، أي المنهج الذي يمكّن من إعادة صياغته بشكل يؤهله للقيام بمسؤولياته تجاه الحياة، مؤكداً على مركزية التعليم في مشروع الأستاذ فتح الله كولن.

أما الدكتور الأحمدي أبو النور وزير الأوقاف السابق في جمهورية مصر العربية فقد تناول في ورقته التي حملت عنوان "الوسطية في فكر فتح الله كولن"، التجربة التربوية ودعوته إلى اتباع المنهج الوسطي المعتدل والحوار مع الآخر وضرورة التعايش والتفاهم والتسامح مع الغير من أجل بناء مجتمع قادر على مواكبة متطلبات العصر ومواجهة تحدياته.

الجلسة الثانية

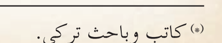
ذكر معالي الأستاذ فهد أبو العثم وزير العدل السابق في المملكة الأردنية الهاشمية في الجلسة التي ترأسها، أن جهود محمد فتح الله كولن لم تقتصر على النظريات والأقوال وإنما مارسها تطبيقاً لا قولاً، وممارسة لا شعاراً. وقد أكد الدكتور مأمون جرار في ورقته التي قدمها بعنوان "منهج فتح الله كولن في قراءة السيرة النبوية" على ما ذكره فتح الله كولن في كتابة "النور الخالد" من أن الرسول ﷺ فخر للبشرية جمعاء ومنقذ لها، فمنذ أربعة عشر قرناً يقف وراءه أكبر الفلاسفة وأعظم المفكرين وأشهر العباقرة وأذكى رجال العلم الذين زينوا سماء الفكر، يقفون وراءه خاشعين، قد عقدوا أيديهم أمامهم وهم يخاطبونه ويقولون: "أنت الإنسان الذي نفخر بانتسابنا إليه"، كما بيّن الدكتور جرار أن منهج فتح الله كولن في تناوله للسيرة النبوية ليس استعراضاً تاريخياً لشخصية النبي، بل تقديم هذه الشخصية بكل جوانبها كقدوة ونموذج يحتذى به، مؤكداً على وجوب تناول شخصية الرسول ﷺ كمنقذ للبشرية، وأن خلاص الأمة يكمن في سيرته العطرة.

وعليه فقد ذكر الدكتور محمد بن موسى بابا عمي في ورقته المعنونة بـ"المراحل السبع في تحويل المعرفة إلى سلوك عند كولن" أن الملفت للنظر في تجربة كولن، هو قدرته على تحويل المعرفة إلى سلوك، والفكر إلى فعل، والبحث إلى حضارة، مشيراً إلى أن تحويل المعرفة إلى حضارة عند كولن تمر بعدة مراحل أهمها معرفة "الحق" ﷻ حق المعرفة، كما لفت بابا عمي -في ضوء ما قاله فتح الله كولن- إلى أن المعرفة الصحيحة تؤدي حتماً إلى السلوك الصافي الصحيح، وأكد على وجوب بناء الذات قبل بناء الحضارة، ومن ثم على ضرورة الربط بين لغة العقل ولغة اللسان والجوارح تحت الكلمة الطيبة والعمل الصالح.

أما الدكتور موفق دعبول من سوريا في ورقته التي عنونها بـ"أولويات الإصلاح بين مدرسة كولن والتيارات الإسلامية المعاصرة" بيّن أن أهم جانب يميز فتح الله كولن في تجربته، هو صب جل اهتمامه على التربية وحثه على إنشاء المدارس والجامعات في شتى بقاع الأرض لنشر الفكر السليم والقيم الإنسانية الفاضلة، ووصف هذا العمل بـ"الإسلام الشعبوي" لا السياسي، مؤكداً أن هذه الحركة ليست حركة سياسية، بل مدنية شعبية.

الجلسة الختامية

خُصّصت الجلسة الختامية التي ترأسها الأستاذ الدكتور محمود السرطاوي لبيان انطباعات المشاركين الذين زاروا تركيا وشاهدوا التجربة التركية عن قرب، واعتبروها نموذجاً فريداً في البلاد العربية والإسلامية. ولابد من التنويه إلى أن الندوة لاقت تغطية واسعة من قبل وسائل الإعلام المختلفة، حيث قامت المحطات الفضائية بتسجيل الندوة، فضلا عن محطات التلفزة التركية التي قامت بالبث المباشر لها. ■



(*) كاتب وباحث تركي.



أ.د. الأحمدي أبو النور



معالي الأستاذ فهد أبو العثم



د. مأمون فريز جرار



د. محمد موسى باب عمي



أ.د. محمد السرطاوي



أ.د. موفق دعبول



لا فضيلة بغير دين، ولا دين بغير فضيلة.. إنسانيّا تودُّ أن تصير؟ وحيدا متميزا عن كل الأحياء تحب أن تصبح؟ فعليك بالدين إذن. تشرَّبْ رحيقه، والتمس هدايته، وإلا إلى الحيوانية انتكستَ، وإلى الترابية عدتَ..!

***

أزمة الذات المسلمة

وضياع الإحساس بالسنن الكونية

أ.د. عبد الحليم عويس *

بعيداً عن ذلك الجدل العقيم حول دور "الإنسان الفرد" و"الإنسان المجتمع" في العملية الحضارية، فإننا نؤمن إيماناً لا يخالجه شك بأنَّ "الإنسان الفرد" هو الأصل الأصيل لكل عملية صناعةِ حضارة في التاريخ، ثم يأتي بعده "الإنسان المجتمع". وبالتالي فإن ما يصيب الإنسان المسلم من أمراض حضارية تؤثر بطريقة جوهرية على المستوى الذي تستطيع به هذه الحضارة أن تستجيب للتحدّيات البيئية أو البشرية.

إن الإنسان -بكل المقاييس- هو أساس العملية الحضارية، وإنّ حضارتنا الإسلامية ليست نشازاً في هذا المجال، بل لعلها من أكثر

إن نقطة الإعجاز في الحضارة الإسلامية أنها استطاعت أن تمشي في التاريخ، وأن تقدم صوراً من الإبداع الحضاري المادي لا تقل عن أي حضارة أخرى سبقتها، أما عطاؤها في "الإنسانيات" فهو فريد في الحضارات كلها.

الحضارات اهتماماً بدور الإنسان في التاريخ.

ولهذا فهي -ابتداء- لا تعفيه من أي مسؤولية تحت أي شعار، كما أنها لا تجعل المسؤولية الجماعية بديلاً عن المسؤولية الفردية، بل ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾(المدثر:٣٨)، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۞ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۞ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾(مريم:٩٣-٩٥).

وهذا الإنسان كما هو معروف كائن معقد، مزود من خلال تركيبه العضوي والنفسي والروحي المتكامل بكل الإمكانيات والطاقات التي تؤهله للسير في طريق التاريخ الحضاري صعوداً وهبوطاً: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۞ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾(التين:٤-٥)، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠).

الذات الإنسانية

ولأن هذا الإنسان في النظرة الإسلامية كائن متكامل في بنائه، وهو ذو طاقات متعددة لكنها متشابكة ومتكاملة، وهو كذلك لا يتحرك إلا بدوافع متعددة توازي طاقاته كلها... لأنه كذلك، فنحن نقترح بأن نطلق عليه اسم "الذات" أو "الذات الإنسانية". هذه "الذات" هي هذا المضمون الكلي أو الكائن المتشابك الذي يضم في أحشائه وبدون تشطير "النفس" و"الجسم" و"العقل" و"الروح".

إن هذه "الذات" هي التي أطلق سراحها في التاريخ بعد أن هبطت من الجنة، وهي بكيانها ذلك قد نيط بها أن تصنع "حضارة" متكاملة مثل تكاملها، متوازنة مثل توازنها، منسجمة مثل انسجامها. ذلك لأنها تصنع حضارة لذاتها.. حضارة إنسانية، وبالتالي فلابد أن تُشبع عن طريق هذه الحضارة كلَّ طاقاتها.

وفي التاريخ تتابع الأنبياء وكلهم يقدم الحضارة الإنسانية الملائمة المنسجمة مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، مركّزين على الجوانب التي اهتز رصيدها حتى يعود التوازن والانسجام بين كل الجوانب.

وعندما جاء الإسلام سار على الدرب، فكان هو أيضاً ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾(الروم:٣٠). ونجح هذا الدين العظيم في مناهجه التاريخية، فقدم إنساناً متكاملاً، وقدّم من خلاله حضارة متكاملة أبدعت في شتى الجوانب، روحية أو عقلية أو مادية، والأهم أنه قدم هذه الحضارة المتعددة الجوانب على نسق "توحيدي" يفرض نزعته "التوحيدية" على كل صورة إبداعية من إبداعات هذه الحضارة؛ فنية أو علمية أو روحية.

إن الأصول الروحية والمادية التي قامت عليها هذا الحضارة ظلت ماثلة في كيان المجتمع الإسلامي في إبان عصره الأول والوسيط، ولا تزال ماثلة في عصره الحديث بدرجة متفاوتة، لكنها موجودة وكاملة، على مستوى التنظير على الأقل. وأيضاً -وبنفس المستوى- ظل الإنسان المسلم هو المترجم الحقيقي -في مجال التنظير والتطبيق- لمنهج هذه الحضارة، وظل العمود الفقري الذي تعتمد عليه الحضارة الإسلامية وهي تقوم بدورها في التاريخ.

إن هذا الإنسان المسلم أو بالتعبير الذي أحسن استخدامَه الشاعر المفكر المسلم محمد إقبال: "الذات التي حملت أمانة تجسيد الحضارة الإسلامية في كل جزيئات فكره وسلوكه"، كان حقاً خليفة الله في الأرض، يحمل إلى البشرية الأمانة التي حملها الإنسان. وكان هذا الإنسان النموذج الحضاري الذي تتحقق فيه الشروط الكاملة للقيام بالدور الحضاري، وهي في رأي محمد إقبال ثمانية شروط:

١- الإرشاد على خطى قيادة ملهَمة (النبوة).

٢- وعلى اعتبار روحي (التوحيد).

٣- وعلى دستور (القرآن).

٤- وعلى مركز محسوس: (الحرم).

٥- وعلى هدف واضح تقرّه الجماعة.

٦- وتكون له السيادة على قوى الطبيعة.

٧- وأن تطور ذاته في اتجاه الذات الكلية الجامعة.

٨- وأن يحتفظ للأمومة بحقها (ولعله يقصد دور المرأة عموماً وذكر الأمومة؛ لأنها أشرف أدوار المرأة).

ومن الضروري لهذه الذات أن تتصادم بالعوامل الخارجية (التحدي) حتى تظهر قوتها وحيويتها وعبقريتها وقدرتها على المقاومة والنمو. وفي قصيدته "دور الإنسان في التاريخ" يبرز "إقبال" هذا الدور الخطير عبر محاورته "الداخلية" التي يحاور فيها الإنسان خالقه وخالق الكون:

أنت خلقت الليل... وأنا صنعت المصباح،

أنت خلقت الصلصال... وأنا صنعت الكوب،

أنت خلقت الصحاري والجبال والغابات...

وأنا صنعت البساتين والحدائق والأرائك...

أنا الذي صنعت المرآة من الحجر...
وأنا الذي حولت السمّ إلى شراب نافع...
هذه هي "الذات المسلمة" التي صنعت الحضارة الإسلامية والتي أدت دور خليفة الله في الأرض.

الهبوط التاريخي

حين أصبح الإسلام "جباية" لا "هداية" سقطت إرادة المسلم الاجتماعية، وحين استأثر "بيت المال" أسرة أو جماعة، سقطت إرادة المسلم الاقتصادية؛ وتنازع المسلمون فيما بينهم، فسقطت عوامل كثيرة من عوامل شعورهم الواحد... وقبل كل ذلك، كانت الذات المسلمة تفقد أجزاء من ذاتها، فتتفاعل مع عوامل الهدم الخارجية.. وكانت أزمتها الكبرى في داخلها فلم تستطع مقاومة "التحدّيات الجديدة"...

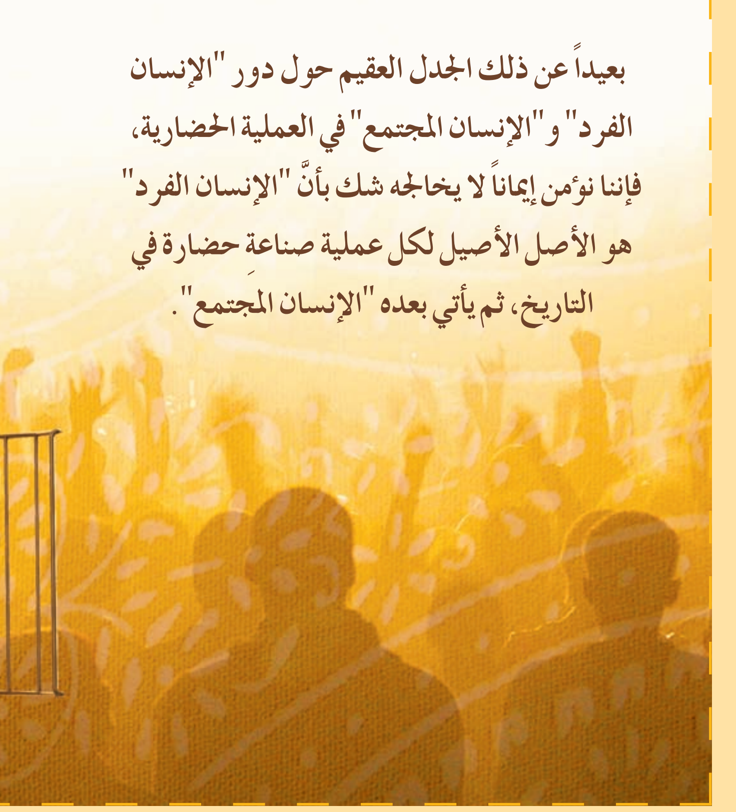
وبين الحين والحين كانت تلك الذات المسلمة تثور على عوامل ضعفها، لتعود نقية فتية كما حدث أيام عمر بن عبد العزيز، وأيام المرابطين والموحدين والسلاجقة، وفي بعض دول الهند الإسلامية، وأيام صلاح الدين، وفي أيام المماليك، ومع كثير من خلفاء آل عثمان، وفي العصر الحديث...

إغفال دور السنة

وكان من أخطر ما وقع من تشقيقٍ وتمزيقٍ في حضارتنا الإسلامية الحديثة، أن دور "السنة" وهي النموذج الحي الذي قدمه الرسول ﷺ قولاً أو فعلاً أو تقريراً، قد أغفل في العصر الحديث وفي كثير من عصور التدهور.

وبما أنَّ السنة مكمِّلة للقرآن وشارحة له، بل هي الدليل العملي على إمكانية تطبيق مبادئه، والعملُ بها هو عملٌ على حفظ كيان الإسلام وعلى تقدمه، كما أنّ هدمها هدم للهيكل الذي قام عليه صرح الإسلام.. وبالتالي فإن الذين يقولون بترك السنة يشبهون رجلاً يريد أن يدخل قصراً، ولكنه لا يريد أن يستعمل المفتاح الأصلي الذي يستطيع به وحده أن يفتح الباب.

بالإضافة إلى هذا، فإنه في هذه الأيام التي زاد فيها نفوذ المدنية الغربية في البلاد الإسلامية، فإن ترك نموذج الرسول ﷺ الذي هو "أسوة" حضارتنا وإمامها؛ إنما يعني التخلي عن حضارتنا الإسلامية، وقبولَ النماذج التي تقدمها هذه الحضارة الغربية، ولعل هذا ما يسعى إليه المتجرئون على سنة الرسول ﷺ. ولكن إذا كنا نحن مسلمين حقاً، نعتقد أن نبيّنا أحسن قائد عرفه البشر، وأنه -بطبيعة الحال- كان يعرف أمر الدين



بعيداً عن ذلك الجدل العقيم حول دور "الإنسان الفرد" و"الإنسان المجتمع" في العملية الحضارية، فإننا نؤمن إيماناً لا يخالجه شك بأنَّ "الإنسان الفرد" هو الأصل الأصيل لكل عملية صناعة حضارة في التاريخ، ثم يأتي بعده "الإنسان المجتمع".

بناحيتيه الروحية والاجتماعية؛ فإن علينا أن نلتزم بهذه السنة، ولا سيما وأن مصادرها الصحيحة قد ثبتت بطريقة نقدية تاريخية علمية تفوق أيّ مصادر تاريخية في الأرض. والشك فيها يستوجب الشك في التاريخ البشري كله، بل إن ثبوتها يفوق -أمام مجيء المنهج التاريخي النقدي- ثبوت ما عداها من كتب الأديان الأخرى.

وبصفة عامة، فإن هناك عدة أسباب توجب إقامة السنة في حياتنا، وإحياءها في مجتمعاتنا باعتبارها أقصر طريق لإحياء حضارتنا الإسلامية. وأبرز هذه الأسباب:

• إن السنة تقوم بتمرين المسلم بطريق منظمة على أن يحيا دائماً في حال من الوعي الداخلي واليقظة الشديدة وضبط النفس، لأن الأعمال والعادات التي تقع عفواً لساعة تقوم في طريق التقدم الروحي للإنسان، وكأنها حجارة عثرة في طريق الجياد المتسابقة.

• إن الرجل الذي جاء بالسنة ليس هادياً من الهداة وإنما هو وحده "الهادي". فاتباعه اتباع للإسلام عينه، وإطراح سنته اطراح لحقيقة الإسلام.

• إن تطبيق السنة تنفض عنا روح الاستسلام والتبرير في قبول الصياغة الغربية للحياة. وبالتزامنا بها واتخاذنا إياها الكلمة الفصل، نستطيع بسهولة أن نعرف البواعث والآفات

الـذي ارتبط بالكون والزمان هذا الارتبـاط الالتزامي الكريمَ، ونهـاه دينـه عـن أن يسبّ الدهـر، بل علمـه القـرآن أن لهذا الكون "غائية" مرتبطة بـ"سببية" قوية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِـلاَفِ اللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ لَآيَاتٍ لِأُولِـي الأَلْبَابِ ۞ الَّذِيـنَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًـا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(آل عمران:١٩٠-١٩١).. وعندما يخرج الإسـلام بالعبـادة عـن إطار الشـعائر المحددة ويوسـع آفاقهـا، بحيث يجعلهـا سـنة كونيـة عامة: ﴿وَمَـا خَلَقْـتُ الْجِنَّ وَالإِنْـسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦) فإنـه إنمـا يقصد ربط المسـلم بالحركة الكونيـة العامـة في كل حركاته وأنشـطته، لكي يـؤدي الأمانة التي حملها تجاه الكون كله.

ولعلنـا الآن نسـتطيع أن نـدرك معنـى الآيـة: ﴿وَهُـوَ الَّـذِي جَعَـلَ اللَّيْـلَ وَالنَّهَـارَ خِلْفَـةً لِمَـنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّـرَ أَوْ أَرَادَ شُـكُورًا﴾(الفرقان:٦٢)، فـإن التفسـير الدقيـق لتعاقـب الزمـان -كمـا يتجلـى فـي أنفسـنا- يؤدي بنـا إلى فكـرة عن الحقيقـة القصـوى، هـي أنهـا "ديمومة بحتـة"؛ يتداخـل فيها الفكـر والوجـود والغايـة لتؤلـف جميعـاً وحـدة متكاملـة.

لكن المسـلم في مراحل انزلاقه، قد انفك ارتباطه بالسنن الكونية والاجتماعية. وسرعان ما وجد أشباه فلاسفة، يقدمون لـه التبريرات المطلوبة لفك ارتباطه بالحركة الكونية وللسير اعتباطيـاً علـى أرض التاريـخ. فهو يتحرك دون وعي مسـبق، وهو يتحرك غريزياً، وهو لا يعرف لحياته أهدافاً، وهو مقطوع الصلة بالكون وما تستتبعه هذه الصلة من آفاق "معرفية" وآفاق "جمالية" وحركة "إيجابية" وسباق بنّاء مع تعاقب الليل والنهار ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ﴾.

أجل، إن السببية روح التاريخ، وإلا فماذا وراء هذه الحركة المكرورة في الكون؛ شمس وقمر وليل ونهار... ﴿لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(يس:٤٠)، هل هي قصة عبثة؟!

وما في الكون، موجود -بنموذجه- في المجتمع البشري. فمـاذا يمكـن أن يكـون وراء آلاف المعـارك البشـرية وصور تدمير المدن وقيام أمم وسقوط أخرى...

لابد لهذه الأحداث المكرورة من أسباب وغايات. ولقد قدم القرآن للإنسـان المسلم أسـباباً هنا وغايات هناك، ارتبط بها المسـلم يوم حدد لنفسـه دوراً في هذه الحركة، يوم سـاح



التي ترد علينا من المدنية الغربية.

ثـم إننـا نكون -فـي ذات الوقت- قد طبقنا القرآن نفسـه. ألـم يكـن خلقُـه ﷺ القـرآن كمـا ورد فـي الأثر، وألـم يأمرنا القرآن نفسـه بطاعته: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُـولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْـهُ فَانْتَهُوا﴾(الحشر:٧). فهل لدينـا الصلاحية لكي نقبل نصف الإسـلام ونرفـض نصفه الآخر، أو نؤمـن ببعض آيات القرآن ونكفر ببعض!

المسلم يفقد دوره الكوني

عندما فقد المسـلم صلته بروح الإسـلام وبحياة الرسـول ﷺ ذهـب يهبـط في سـلّم الحضـارة. فـكان أن فقـد قدرته على الالتـزام والانضبـاط. وكانت هذه هي الفرصة السـانحة لكي تنتشـر بين أفراده ألوان من "التواكلية" و"السذاجة" و"القدرية" والبعد عن اسـتيعاب سـنن الله الكونية وسنن الله في الاجتماع البشري، وقوانينه في التقدم والتخلف.

إن المسـلم الـذي ارتبـط فـي مرحلـة نضجـه الحضاري بالصلـوات الخمس فـي مواقيتها المرتبطة بالحركـة الكونية، وعَـرف "مواقيـت الصـلاة" سـلوكاً دينيـاً ونظامـاً دنيويـاً، وتعبّـد بقول القـرآن ﴿إِنَّ الصَّـلاَةَ كَانَتْ عَلَـى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾(النساء:١٠٣)، كمـا أدى الـزكاة مـع حلـول "الحـول"، وأيضـا: ﴿وَآتُوا حَقَّـهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾(الأنعام:١٤١).. هذا المسـلم

المسلم في الأرض يحمل راية التغيير الإنسانية الشاملة: "الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده" كما قال ربعيّ بن عامر ﷺ أمام رستم بينما كان رستم قائداً للفرس، وكان ربعي كأنه عاري الجسم حافي القدمين، لكنه كان "الإنسان الأعلى" الذي جاء لإحداث الانسجام بين الحركة الكونية والحركة البشرية.

وفي مراحل الانزلاق فقدَ المسلم هذا الدور الكوني، بل لقد فقدَ الإحساس بالسنن الكونية. وإن الزمان ليتحرك أمامه في تغييره ونظام انسجامه فيبدو له وكأنه يتحرك في "شاشة مرئية" أمامه، أو كأن الزمان مجرد "تمثيلية" مكتوبة بلغة أجنبية لا يعرفها المسلم الحديث، فلا يعنيه منها إلا الصور البلهاء التي تجعله يبتسم كالمبتسمين دون وعي، وقد يبكي أيضاً دون وعي بالأسباب التي تبكيه.

وضاعت روح المسلم

يقول أبو الحسن الندوي: "إنكم ترون في المتاحف كل نوع من السباع والأنعام والطيور الجميلة والعصافير.. ففيها الأسود والذئاب والأفيال، وفيها كل طائر جارح، وكل سبع مخيف؛ ولكنها جثة هامدة لا حراك فيها، وأجماد ميتة محشوة بالليف والقطن، ليس فيها رمق من حياة وقوة تهجم بها وتصول (...) إن الصورة لا تستطيع أن تسد مكان الحقيقة وتنوب عنها، ولا يمكنها أن تمثل دور الحقيقة في الحياة وتأتي بما تأتي به من عمل ونشاط، ولا يمكن أن تقاوم الحقيقة وتكافحها... فإذا وقع صراع بينهما انهارت الصورة (...) والصورة -ولو كانت مهيبة هائلة- تتغلب عليها الحقيقة ولو كانت ضعيفة متواضعة، لأن الحقيقة الحقيرة أقدر وأقوى من الصورة العظيمة المهيبة، وإن الطفل يقدر أن يسقط الأسد الميت المحشو بالليف والقطن بيده الضعيفة الناحلة، لأن الولد يحمل حقيقة ولو حقيقة صغيرة، والأسد ليس إلا صورة ولو كانت صورة مهيبة (...) ولذلك نرى بأعيننا أن "صورة الإسلام" أصبحت لا تغلب على "الحقائق" المادية الحقيرة، ونحن نحتاج اليوم إلى حقيقة الإسلام والإيمان للظفر على الحقائق المبثوثة في العالم".

نعم، إن أكبر مهمة دينية في هذا العصر وأعظم خدمة وأجلّها للأمة الإسلامية، هو دعوة السواد الأعظم للأمة وأغلبيتها الساحقة إلى الانتقال من صورة الإسلام إلى حقيقة الإسلام... لكننا نعتقد أن هذه الدعوة تحتاج إلى "برنامج" يسمح للمسلم بأن يتجاوز تلك العقبات التي تحجز بينه وبين أن يتمثل الحقيقة الإسلامية.

وهذا البرنامج لابد له أن يتّكئ على دعامتين أساسيتين:

• دعامة تفريغ المسلم من الجاهليات التي اندمجت في لحمه ودمه واتجاهه في التفكير، بل في عواطفه ومشاعره، وأصبحت وكأنها بعضه الذي لا ينفصل عنه إلا بعملية تفريغ.

• ودعامة ملء هذا المسلم بالإسلام الصحيح الحي الذي يملأ عليه دنياه ويصوغ له حياته، ويغني كل طاقاته عن البدائل المطروحة في ساحة الأفكار والفنون والآداب والتصورات الأخلاقية والكونية والجمالية.

وليس من شك أن المسلم في العصر الحديث يقف على مفترق طرق، حيث تتخايل أمام عينه وقلبه آراء وتيارات ذات مضامين خلابة، وذات بريق ساحر، وأنه لن يستطيع طويلاً أن يظل هكذا مائلاً هناك تارة، ومائلاً هنا تارة أخرى. كما أنه لا يستطيع أن يظل هكذا مسلماً بلا إسلام أو شكلاً بلا مضمون... "لقد انقضى نومه السحري الذي دام أجيالاً فيجب أن ينهض أو يموت"، "وإن المشكلة التي تواجه المسلم اليوم هي مشكلة مسافر وصل إلى مفترق الطرق... إنه يستطيع أن يظل واقفاً مكانه، ولكن هذا يعني أنه سيموت جوعاً، وهو يستطيع أن يختار الطريق التي تحمل فوقها هذا العنوان "نحو المدنية الغربية"، ولكنه حينئذ يجب أن يودّع ماضيه إلى الأبد، أو إنه يستطيع أن يختار الطريق التي كتب عليها "إلى حقيقة الإسلام"، لكنه في هذه الحال لابد أن يعود إلى روح الإسلام الحية الفاعلة الإيجابية، وأن يترك للإسلام فرصة الاستيلاء على كيانه كله، وإلا فإنه لا زال واقفاً في منتصف الطريق.

وإن نقطة الإعجاز في الحضارة الإسلامية أنها استطاعت -مع طبيعتها هذه- أن تمشي في التاريخ، وأن تقدم صوراً من الإبداع الحضاري المادي لا تقل عن أي حضارة أخرى سبقتها، أما عطاؤها في "الإنسانيات" فهو فريد في الحضارات كلها.

ولا تزال هذه الحضارة وستظل قادرة على أن تعطي. ولعل ما يجري على الساحة العالمية الآن من بوادر الانبعاث، أكبر دليل على القدرة الذاتية لهذه الحضارة الفريدة في التاريخ. ■

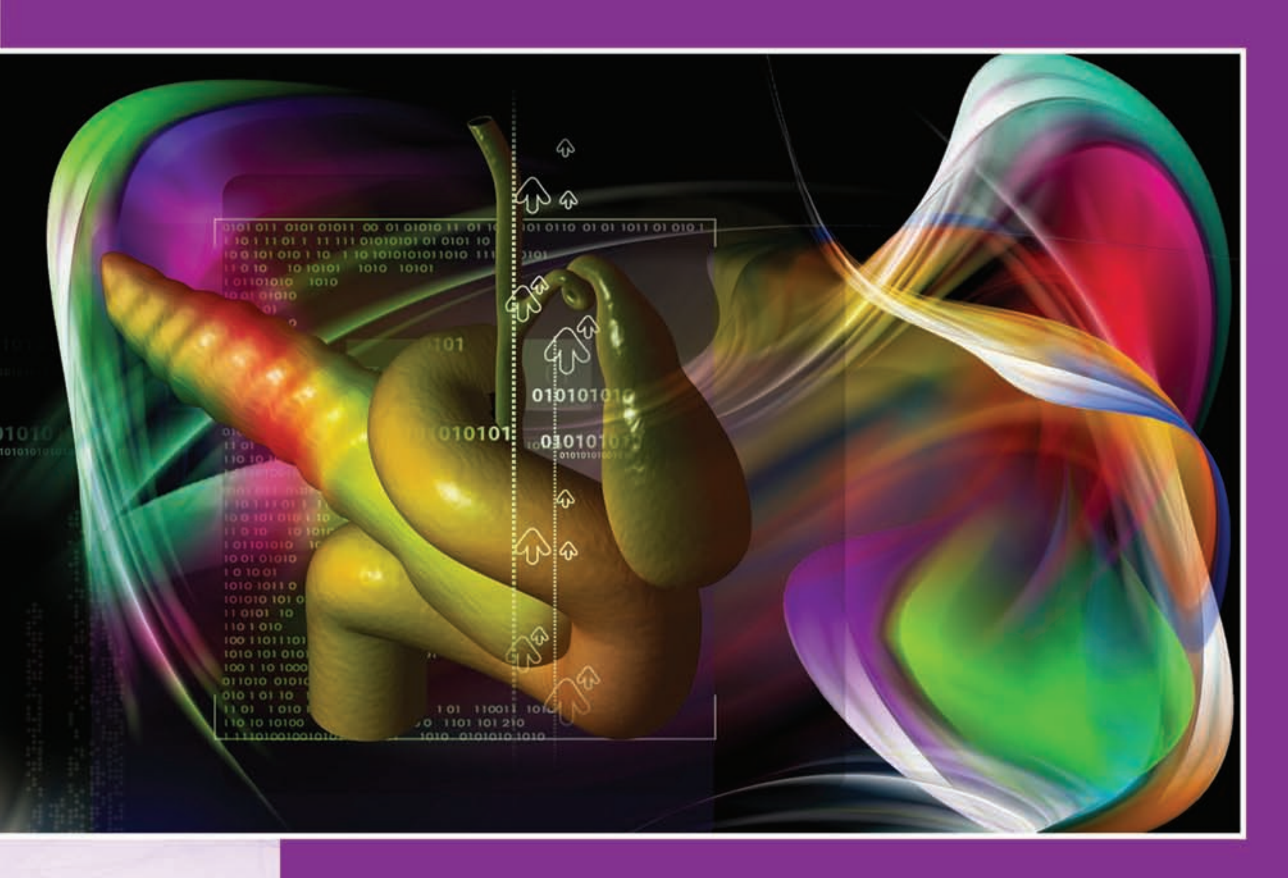
(*) أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية / مصر.

المصادر

(١) دارسات في الحضارة الإسلامية، للدكتور أحمد إبراهيم الشريف، طبعة مصر.

(٢) الإسلام على مفترق الطرق، لمحمد أسد.

(٢) تجديد الفكر الديني، لمحمد إقبال.



أنا بنكرياس عبد الله

أ.د. عرفان يلماز *

عزيزي عبد الله.. لعلك بعد أن تتعرف عليّ اليوم ستكون قد تعرفت على كافة الأعضاء في البطن والقفص الصدري. إن حجمي لا يعد كبيراً ولا ملفتاً للنظر كباقي الأعضاء، كما أني أكاد لا أُرى عند الكبد والقلب والرئتين. ولكن إياك أن تغتر بكلامي المتواضع هذا وتستصغرني بأسلوبي الهادئ الصامت! فلا تظنن أن القلب الذي يصدر أصواتا مخيفة كالمضخة أو الرئة التي تخرج هديراً كالقاطرات، أعلى مني قدراً وأعظم مني شأناً! فنحن الأعضاء جميعنا كالعضو الواحد يكمل بعضنا البعض، وكل واحد فينا يؤدي مهامه المكلّف بها من قبل خالقه سبحانه ويشكره ليل نهار.

لا أحد منا يعمل دون العضو الآخر. ولعلي أبدو كقطعة نسيج دهني صغير جداً باللون الزهري بين المعدة والأمعاء، ولكني مكلَّف بمهمة حياتية كبيرة رغم صغر حجمي الذي يبلغ حوالي الست بوصات. كما أتصل بالأمعاء الدقيقة وأقع قريبا من المعدة وبالعمق في الجزء العلوي الخلفي للبطن مقابل العمود الفقري. إني ضروري جداً لعملية الهضم، إذ أطرح المواد التي أفرزها وفق برنامج إلى جوف الأمعاء قبل امتصاصها من قبَلها.

ولدي هويتان مختلفتان إحداهما تكوينية، والأخرى تنفيذية. ولا يوجد عضو آخر في الجسم يعمل

مثلـي، حيث أجمع في صفتي بين مميزات الغدد ذات الإفراز الداخلي (القنوية) والغـدد ذات الإفراز الخارجي (اللاقنوية). ولإنْ أقـوم بـأداء دوري على أكمل وجه خلقتُ بشـكل دقيق جـداً، إذ كوَّنـني ربـي من طبيعة حساسـة ومنحنـي خصائص كيميائية دقيقة تسـاعدني على القيام بهمتي هذه. إني أستغرب كثيراً من المتمسكين بنظرية التطور -بشكل مفرط- والقائلين بـأن كل مـا فـي الطبيعـة خلق صدفـة أو أن الطبيعـة هي التي خلقتهـا وأوجدتهـا! فلـو أن أولئـك نظـروا إلـى الخصائص التشـريحية والنسـيجية الدقيقة لجسـمي الصغير، ولـو تمعّنوا فـي عظمـة خلقتـي المذهلـة، لوقعـوا لله سـاجدين وصدقوه قولا وعملاً، ولكنهم لا يبصرون! فمنذ عشـرات السنين يقوم العلماء في شتى بقاع الأرض بالبحث والفحوصات المختبرية والدراسـات العلميـة باسـتخدام المـواد الكيميائيـة الحيويـة وباسـتعمال المجاهر الضوئية والمجاهر الألكترونية من أجل الحصـول على معلومات أكثـر عني، ورغم ذلك ما زال هناك البعض من هؤلاء ينكرون وجود خالقي وقدرته سبحانه.

إن إحـدى وظائفي تتعلـق بفيزيولوجيا الجهـاز الهضمي، حيـث أُعَـدّ ضروريا جدا لعملية الهضم، وذلـك لإفراز الغدد النسـخية الموجـودة فـي الاثنـي عشـري، وقـد تحتـوي هذه العصارة على الأنزيمات التي تسـاعد علـى هضم البروتينات والدهون والكربوهيدرات قبل أن يتسنى امتصاصها من خلال الأمعـاء، كمـا أحتوي أنـا البنكرياس على غـدد صماء تعرف بـ"جـزر لانغرهانـس"، وأحتوي على خلايا فئة "بيتا" التي تفرز هرمـون الأنسـولين الـذي ينظـم تركّز السـكر في الـدم، كما أحتـوي أيضاً على خلايا فئـة "ألفا" التي تفرز هرمون معروف باسـم "غليكاغون" وله مفعـول معاكس لمفعول الأنسـولين. ولكني لا أشعرك بشيء أبداً.

عندمـا ينتقل الطعـام من معدتك إلى الاثني عشـري، فإن معـدلَ تدفّـق الأنزيمات لديّ يـزداد أيضـاً، أي إن الأنزيمات تفـرز وفقاً لكمية الطعام الذي تتناولـه أنت. بينما تتطلب هذه العملية دقة بالغة، وإلا تضيع الأنزيمات وينشأ تآكل في الجدار الهضمي داخل الأمعاء. ليس لدي المقدرة على التحكم التام فـي إفـراز الأنزيمـات وفقـاً لكمية الأطعمـة الـواردة، بل يتم التحكم من قبل هورمون السكْرتين والبنكريوزيمين الذي يقوم بتحفيـزي أنا البنكرياس على إفـراز إنزيماتي الخاصة، وذلك عـن طريق العصب المبهم الناشـئ في الدمـاغ. وعندما تنتقل الأطعمة من المعدة إلى الاثني عشري، يبدأ هرمون السكرتين والبنكريوزيميـن يختلـط بالـدم، وعندمـا يصل هـذا الهرمون إلـيَّ من خلال الـدورة الدموية، يحفزني لأفـرز البيكاربونات والإنزيمـات الهاضمـة في الأمعاء، كما يحفـز الكبد في إفراز العصارة الصفراوية والمعدة على إنتاج الببسين.

يتـم صناعـة عصاراتـي الهضمية في خلايا آسـينوس التي تشـبه عنقود العنب، إذ تسـمي أنتَ الغدد التي أفرزها بواسطة هـذه الخلايـا بـ"الغدد القنوية" أو "الغـدد الصماء" وغيرها من الأسماء كما تم ذكرها سابقاً.

بعد أن تتنـاول طعامك يتفـكك الكربوهيدرات المهضوم إلـى جزيئات الغلوكوز وينفذ إلى دمك، وبالتالي ترتفع نسـبة السـكر فيه. ولكي يعمل بدنك بشـكل صحي ينبغي أن يكون مسـتوى الغلوكوز في دمك حوالي ١٠٠ ملغ/مم (ويمكن أن يتراوح ما بين ٨٠ – ١٢٠). وعندما يرتفع مسـتوى السكر في دمـك أكثر مـن ذلك، فإنني أفرز الأنسـولين. فـي حين أمدّك بالطاقـة بنقل السـكر إلى الخلايا وحرقـه فيها، كما أني أوقف ارتفاع السـكر في دمك، وأوقف إفراز الأنسلين عند انخفاض السكر في الدم أيضاً. ومنه فإن الأنسولين يسهل عملية تخزين السـكر في الأنسـجة الدهنية وتحويله إلى الأحماض الدهنية، ويبطـئ تدهـور الأحمـاض الدهنيـة. وبالتالـي فإن الأنسـلين يسـاعد فـي تنشـيط الأحمـاض الأمينيـة المحتفـظ بها ضمن الأنسجة العضلية في عملية إنتاج البروتين، وتخزين الغلوكوز في الكبد وتحويله إلى الغليكوجين.

وإن أي خلـل فـي خلايا البيتا لدي، يسـبب داء السـكري أضراراً لا رجوع عنها، حيث تصاب يا عبد الله بداء السكري أو مـرض السـكر عند عجـزي عن إفـراز هرمون الأنسـولين أو إفـرازي بكميـات غير كافية أو غير فعالـة، وهذا يؤدي إلى ارتفاع نسـبة السكر في الدم بحيث يتعدى المستوى الطبيعي. وقـد وصِـف هذا المرض بين العامة بأنه يذيب لحم الإنسـان ويعـرض أطرافـه للهزال، أو بأنه "مـرض الأغنياء"، ولكنه في الحقيقـة مرض خطير شـائع. إذ أحرمك مـن الأطعمة الكثيرة من متع الدينا وأجعلك تدقق أكثر في مأكلك ومشـربك، وإن لم تعتن بالحمية فإنك ستضطر حتماً إلى حقن الأنسولين كل يوم. ولعل هذه الجوانب ستؤدي إلى تلف النسج والأعصاب وعروق دمك ومن ثم إلى مضاعفات عديدة.. لا أريد في هذا الصدد أن أخوض في أنواع هذا المرض، ولكني أريد أن تعي

يـا عبـد الله عجزك أمام مجموعـة من الخلايـا الصغيرة جداً، حيث تفقدك توازن جسـمك بالكامل وتحرمك من متع الدنيا وملذاتهـا، فليس أمامك سـوى الشـكر والمنة علـى الصحة والعافية التي أنت عليها.

أمـا هرمـون الغليكاغـون التـي تفرزها خلايا الألفـا فإنها تعمل عملاً معاكسـاً تماماً من الأنسـولين، حيث تحرر السكر المخـزن في الخلايا. فعندما تنخفض نسـبة السـكر في دمك (بسـبب الجـوع أو العمـل المرهق... إلخ) فإننـي أعمل على تفكيـك الغليكوجيـن الموجود في الكبد إلـى الغليكوز ورفع نسـبة السـكر في الدم. وقد يعمل الغليكاغـون ضمن منظومة متكاملـة مـع الأدرينالين الـذي هو هرمون تفـرزه غدة الكظر وهـي تقـع فوق الكلية، حيـث ينتج في الخلايـا أليفة الكروم في لب الكظر، وهو يعمل على تحضير الجسـم للمجهود أو التوتـر في حالـة الخوف مثلا أو الإثارة. كمـا أن الغليكاغون يبطـئ تركيـب الغليكوجين، ويسـرع من تفكيـك البروتينات حرق دهون الأيض.

وكما هو شأن كل الأعضاء فإنني أصاب بأمراض مختلفة وكثيـرة، ومـن أكثـر الأمـراض شـيوعاً؛ الالتهابـات الحـادة والمزمنـة، والأورام والخراجات. وقد أُصاب بالالتهاب كثيراً خاصـة عند مـن يتناولون الكحول، حيـث لا أعود أقدر على إفـراز العصارات بشـكل جيد وبالتالي فـإن الأغذية لا تهضم جيـداً ممـا يؤدي إلى خروج البراز مدهنـا، مع وجود الألياف البروتينـة فيـه. ولعـل الأمعاء سـتعاني من اضطرابـات نتيجة القصـور فـي الجهاز الهضمي بعـد تناول الطعـام. وفي حال إصابتي بالعطب تماماً وضرورة اسـتئصالي بسبب الالتهابات الحـادة والمزمنـة أو الأورام، فينبغي عليـك حينئذ أن تتناول يومياً السوائل الخالصة الناتجة من البنكرياس والأنسولين من الخارج حتى تبقى على قيد الحياة.

وعليه فإن سـرطاني يتميز بسـرعة الانتشـار، فبعد أن تتم عملية انتقال الخلايا السـرطانية من عضو إلى آخر فإن النهاية تكـون معلومة لأن الطب يعجز أمام هذا الانتشـار. والأسـوأ مـن ذلـك فإنـي لا أظهر إصابتي بالسـرطان حتى تبـدأ عملية الانتقـال هـذا، وإنما أحاول أن أنجز عملـي دون أي نقصان، وهـذا طبعـاً لا يكـون لصالحـك. إذ إنـك لا تشـعر بمرضي إلا بعـد أن أقصـر في واجباتي، ولا أسـتطيع القيـام بمهامي. ولكن -بشكل عام- يكون الوقت قد فات لأن انتشار الخلايا السـرطانية يكـون قد تـم. ورغم أنه لم يثبت بشـكل جازم أن التدخين يسـبب سـرطان البنكرياس، فإنني أعلم أن كثيراً من المدمنيـن يصابـون بهذا المرض والله أعلم. ولكنني شـخصياً أكره التدخين ولدي شبهات حولها. ولعلك تقول بأن التدخين يؤثر على الرئتين مباشرة فما علاقتك أنت به؟ ولكني لا أفكر مثلك! لأن أصدقائي أيضاً يشكون مثلي من التدخين. أوليس الأحسـن لـك أن تعدل عـن التدخين وتعيش حيـاة بعيدة عن هذه الشكوك والأوهام؟

أما فيما يتعلق بمرض السـكر، فإن التطورات التي حدثت فـي الآونة الأخيرة تعطي أملاً فـي القضاء على هذا المرض، إلا أنه لم تزل الدراسـات مسـتمرة حول بعض جوانبه لإيجاد العـلاج التام. وقد أجريـت عمليات ناجحة -إلى حد ما- في نقـل خلايا البيتـا المأخوذة مـن بنكرياس إنسـان ميت حديثاً والشـبيهة -قدر الإمكان- بأنسـجة المصاب بمرض السـكر، ولكـن العملية المتمثلة برفض الأنسـجة أو الأعضاء لا زالت مسـتمرة إلى حد كبير. إذا انتهى في يوم من الأيام "مشـروع الجينـات الإنسـانية" وأمكن وضع الشـيفرة الوراثية للجسـم بشـكل كامل، ووضع كل ما يتعلق بالشـيفرة الوراثية لمراحل أنشـطة خلايا البيتـا وتراكيب الأنسـولين... إلـخ، فإنه يمكن حينئذ معالجة مرض السـكر بواسطة الهندسة الوراثية، ولكنه فـي الوقت الحالي ما هو إلا في طـور التفكير والمخططات. في حين -وبإذن الله- إذا عمل العلماء والباحثون بعزم وحزم وبجـد وإخلاص، عندها يسـتطيعون حل ألغـاز هذا المرض وإيجـاد العلاج له. وهذا هو المطلوب من الإنسـان؛ أن يفكّ أسـرار هـذا الكـون ويـدرك قـدرة الخالـق اللامتناهيـة الذي استخلفه في أرضه.

يزعـم بعـض الغافلين أن ما يفعلونه من تدخلات بسـيطة فـي الجينات، خلق جديد هُـمْ صنعوه! يا لهم من غافلين عن الحقائـق العلمية الكونية والقدرة الإلهيـة اللانهائية. فلو أنهم سـعوا بعلمهـم الـذي منحهـم الله إياه ولـو اسـتخدموا العلم لأجل إسـعاد الإنسـانية، لسـرعان ما كشـفوا حقائق تراكمت عليها الرمال، ولرأوا في الكون الشاسـع ضوء الجمال الإلهي والقدرة الربانية وناجوا ربهم ساجدين "هل من مزيد"... ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: محمد ماهر قفص.



علي تكول *

على الحائط قبالته تماماً خارطة كبيرة... أدام النظر فيها وكأنه يريد أن يحدثها أو أن يستمع إلى حديثها.. الخارطة تتكلم.. تتحدث.. تقص قصصاً.. وتقول أشياء كثيرة لمن يريد أن يصغي وأن يتعلم.. إنه يصغي الآن ويتأمّل.. يتنقل بين أرجائها... يطُوفُ بين بلدانها وأقطارها... وفجأة توقف نظره عند عوالم "آسيا الوسطى"... هذه العوالم السحرية التي يكتنفها الغموض... والتي تعجّ بشعوب وأقوام وتاريخ موار بالأحداث.. إنها تكاد تشكل قارة بذاتها... بأراضيها الشاسعة... وبمناخاتها وأجوائها المتقلبة... وبهذا الكمّ الهائل من الأقوام والقبائل التي كانت تقذف بهم في كل مرة إلى شتى أقطار المعمورة... توقف لحظات.. ثم سارع يستذكر معلوماته المدرسية عن هذه "الآسيوية الوسطية" كما يسمونها... ازدحمت في وجدانه الذكريات... ورجع بخياله إلى تلك السهوب التي تمتد إلى حيث يمتد بصر الخيال... وتمنى لو يفتح عينيه ذات صباح ليجد نفسه في بلد من بلدانها.

وغدا الحلم حقيقة... والخيال واقعاً... فقد وقع عليه الاختيار للذهاب إلى "قزقستان" والعمل في إحدى المدارس التركية.. وحين وصلها وحطّ رحاله فيها شعر وكأنه ينزل في بلد يعرفه حتى من قبل أن يولد... فهو ابن هذه الأرض التي تعرفه كما يعرفها.. فآباؤه الأولون من هذا المكان انطلقوا... وأجداده الأبطال الأشداء المغامرون من هذه الأرض انطلقت خيولهم لتنداح إلى شتى أقطار المعمورة... وها هو اليوم مبعوث إلى هذه الديار لكي يوفي ما في عنقه من دين لهؤلاء الآباء والأجداد من خلال أحفادهم الجالسين على مقاعد الدراسة في هذه المدرسة.

...

ومن الغريب أنه وقبل أن يرحل إلى قزقستان ببضعة أشهر، قرأ في كتاب، عن شخص وفيّ مخلص، اسمه ياسين.. أحبه حباً جماً عن بعد. ولم يفارق خياله ولم يغب عن باله أبداً. فحكى عنه أينما ذهب وأينما جلس.. وأصبح مدار حديثه مع معارفه وأصدقائه.

وعندما قدم قزقستان سارع إلى السؤال عن ياسين وأراد التعرف عليه. فصعدوا به إلى ربوة مطلة على "ألماتا" حيث ياسين، وراحوا يقصون عليه قصته الحزينة:

كان طالبا في الثانوية عندما فُتحت المدارس التركية في أوطان ما وراء النهر آسيا الوسطى. كان مولعا بهذه الأراضي. يهوى الذهاب إليها من صميم قلبه. وعندما سنحت له الفرصة بادر إليها ولم يتردد ولو للحظة واحدة.. جمع عالمه في حقيبة سفره، وسار على درب ديار أحمد اليسوي..

راح يعمل دليلا ومرشدا في ثانوية "عتراو" التركية – القزقستانية من جانب، ويتابع دراسته الجامعية من جانب آخر.. أصبحت المدرسة والطلاب حياة ياسين وآماله.. فهما جليسه عند غربته، وأنيسه عند وحشته.. بذل قصارى جهده لتوثيق الأخوة الأبدية، ولبناء المستقبل المضيء بين أبناء البلدين الشقيقين.. بدا طلابه في نظره كأنهم الأمل والحياة وسر البقاء.. ضمهم إلى صدره ضم الأم ولدها.. وأحبهم بكل قلبه وكيانه.. قدّم لهم كل ما لديه من علم نافع وأخلاق نيرة.. وسرعان ما أصبح ياسين، حبيب الطلاب وأخاهم الكبير الذي يُقتدى به.. وسيصبح فيما بعد بطلا وأسطورة يستوطن قلوبَ الكثيرين من أبناء وآباء وأمهات بلدة "عتراو"..

...

تشير الرزنامه إلى شهر آب عام ١٩٩٤ في مدينة "عتراو".. ياسين وطلابه في نزهة على ضفة نهر "أق جاييق"... كلهم يعبث ويلعب بمرح وفرح.. لا أحد يدري مصيرَ قُدْوَتهم وأستاذهم "ياسين".. أُفلتت الكرة من بين اللاعبين وسقطت في النهر.. سارع الطالب "نورسلطان" لإمساكها قبل أن تجرها المياه إلى بعيد.. شقّ بيديه طريقه إليها وحاول إمساكها، وفجأة أحاطت به دوامة من دوامات النهر فراح يغطس ويتخبط ويصرخ ويستغيث.. "النجدة!.. أنقذوني.." فهرع الأستاذ ياسين نحوه وألقى بنفسه إلى جوف النهر.. راح يجدّف بيديه بكل ما فيه من طاقة وقوة.. حتى وصل إلى "نورسلطان" فحضنه ثم راح يسبح بسرعة نحو الضفة.. وراح ينادي ربه من صميم القلب: "يا رب إن آباء هؤلاء الشباب وأمهاتهم اعتمدوا علينا ووثقوا بنا فلا تخيب ظنهم بنا يا مغيث ويا أرحم الراحمين.." كان يحب طلابه كثيراً ولا يريد أن يصاب أي واحد منهم بمكروه.. وصل إلى الضفة بصعوبة وعناء شديد، لكنه شعر بإعياء شديد وما عاد يستطيع تحريك أي عضو من أعضائه.. أمسك الطلاب بنورسلطان وأخرجوه من الماء.. انشغلوا به وغاب أستاذهم عن بالهم فترة قصيرة.. سمع "ياسين" أن الطالب لا زال على قيد الحياة فحمد الله من الأعماق، ثم همّ بالخروج من الماء ولكن دوامة أخرى من دوامات النهر سحبته إليها دون أن يستطيع مقاومتها من شدة ما كان يعانيه من تعب وإعياء وأخذته إلى البعيد... وسرعان ما راحت الأمواج تتقاذفه وتبعده عن الضفة حتى غاب عن الأنظار...

آثر تلميذه على نفسه، أنقذ طالبه وأسلم نفسه إلى المياه الجارفة.. وسار إلى ربه بنفس مطمئنة. إذ لم يأت إلى هذه البلاد إلا لخدمة الإنسانية ونشر بذور قيم رسالته السمحاء.. لم يأت إلى هذه البلاد إلا لكسب مرضاة ربه سبحانه.. وها هو ينال المنال ويلقى مولاه وهو يخدم أبناء هذه الأوطان..

كان مدير مدرسة ياسين قد قدم إلى تركيا قبل وقوع الحادثة بعدة أيام، إذ كانت زوجته قد أشرفت على الإنجاب.. وفي لحظة الولادة وصله نبأ وفاة ياسين.. ياسين الذي عاهد ربه بأن لا يتوقف عن خدمة الدين والإنسانية حتى يتفطر قلبه... احتضن المدير طفله وعيونه مبتلة بالدموع وهمس في أذنه: "ياسين.. ياسين أنت". ■

(*) كاتب وأديب تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش. وهي قصة حقيقية وقعت في قزقستان.

ذاتَ مساء

عثمان بن عمر لي *

لم تبصرِ الكلماتُ إلا شاطئًا ... يغتالها فتغربتْ في الماءِ

فطفقت أخصف بالظلال على رؤىً ... ذرفتْ ملامحَها على أشلائي

لأُلملم القلب المضيءَ بجُرحه ... وأمدَّ في مرآه لونَ ضياءِ

جبل هنالك كان أبيضَ لونُه ... لكن أصيب بطعنة الظلماءِ

سبحٌ طويل للظلام على المَدى ... وعلى جفون الصبح ألف غطاءِ

ما زال يرنو للحياة فأقبلتْ ... ألحانُها (...تمشي على استحياءِ)

وتفوح ما بين الخَميلة والخميـ ... ـلة فانتشتْ ريحانةُ الأضواءِ

ونَعتْ مواويل الضياع زمانَها ... وتبتَّلتْ في الحكمة العذراءِ

ولَطافة الملكوت تبسطُ فيْئها ... حول اليتيم بكفِّها البيضاءِ

ويَد السَّكينة لا تفارق روحه ... وعلى المحيَّا بسمةُ العلياءِ

لم تبسمِ الأيَّام إلا مرَّة ... إذْ كان فيها لونَ كل صفاءِ

إذ في خُطا جبريل وقع هداية ... تَحكي نَزيف الضوْء في الأنحاءِ

وتبثُّ أحلام السعادة حولها ... وتَزُفُّ آمالاً إلى البُؤساءِ

ما زلتُ أذكر للسلام حكاية ... إذ كان يعبر قامة الصحراءِ

يطوي مداءاتِ الحياة ويرتمي ... في عُمْقها متوسِّدا بسماءِ

فكأنَّه يرتاح بين جَوانحي ... وكأنَّه في مُهجَتي ودمائي

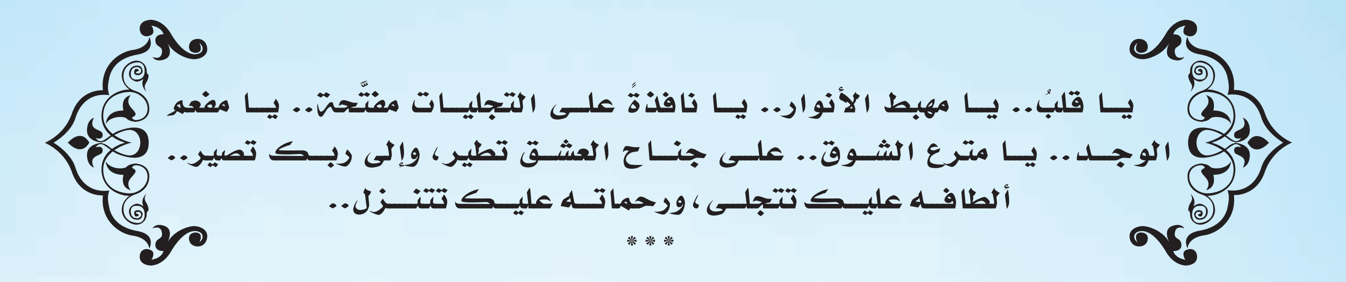
كم هاجرتْ ذكراه تَسكب ظلَّها ... تنْثال بين موائد الفقراءِ

لا يعرف النسيان إلا مضجعي ... لكنني لم أنس ذاتَ مساءِ...

إذ للجمال الغضِّ أعذبُ قصة ... أنغامها تهفو إلى الشعراءِ

مهما يكن للنخل من تَرْنيمة ... فالرمل لا ينسى حديثَ الماءِ

(*) شاعر موريتاني. القصيدة الفائزة بالمركز الأول في فئة الشباب بمسابقة حراء الكبرى للمديح النبوي بموريتانيا بتاريخ ٢٠١٠/٢/٢٣



يا قلبُ.. يا مهبط الأنوار.. يا نافذةً على التجليات مفتَّحة.. يا مفعم الوجد.. يا مترع الشوق.. على جناح العشق تطير، وإلى ربك تصير.. ألطافه عليك تتجلى، ورحماته عليك تتنزل..

***

خذوني إلى التلال الزمردية

أ.د. حسن الأمراني *

يا أهل النور، خذوني معكم، فإني أغالب الشوق والشوق غلاب، ويكويني الحنين إن بدا من جانبكم شهاب قبس، فكأن الظلمة تغشاني إلا أن أسير في ركابكم وأقتبس من نوركم، فلا تتركوني وحيدا، ولا تخلفوني شريدا. خذوني معكم ولو سلكتم بي الشعاب المهلكة والمفاوز الرهيبة، أو صعدتم بي الجبال الوعرة، أو دخلتم بي الغابات الموحشة، زئير السباع فيها يقضقض الأضلاع، ومداد الأفاعي فيها يسبب الأوجاع، خذوني معكم وستجدونني إن شاء الله من الصابرين.

وأُشْـهِدُ الله مـا تخلفـتُ عنكـم رغبـاً ولا رهباً، ولا رغبت بنفسـي عن أنفسكم، فلم تزل بي منذ زمان رغبة جامحـة فـي اللحـاق بكم، عسـى أن يكون غبـار خيل الله زادي، ومـا زال الجهـاد يصـور فـي قلبـي وردة من السـماء، وما زلت أمنـي النفس وأدعوهـا لأخذ العدة، خشـية أن يقـال لي يوما: ﴿وَلَـوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَـهُ عُدَّةً﴾(التوبـة:٤٦)، ولات سـاعة منـدم. وما زلت على تلك الحال أعالج الأشـواق، ورجْل في الركاب وأختها متعلقـة بالتراب، حتـى أدركني ما أدركني، فطرق طارق الأيام فقوس ظهري، وأنضى مطيتي، وأشعل الشيب في مفرقي، ولم يعد لي غير زفرات أرسـلها، ودمع أسكبه، لولا أن العين جفت وغادرتها الدموع، وما أدري أذلك من قسوة القلب، أم من الغفلة، أم من كثرة ما ذرفت العين في الأعصـر الخوالي؟ وقد كنت وأنا عند الكعبة أقول: "قال لي: ما تشتكي؟ قلت: أنا *** أشتكي قسوة قلبي يا أخيّ

علـى أن لـي قلبا ما تـزال به خفقة في جنـح الليل، ومـا يزال معلقـا بالثريا، وإن أخطأ الطريـق زمناً، وأنفق العمـر في انتظار نـوال كاذب، وكادت تحيط به نزغات الشـيطان فتكسـر همته، ولكن الشـوق لم يبرح لحظة، والتعلـق بطريق النور لم يفتر ثانيـة واحدة، فجددوا فيّ العـزم يا أهل النور تجدوا مـا يرضيكم وأجد ما تطمئن بـه النفس وتقر به العين، فإن شـبح الموت يكاد يخترم الأحـلام، وينضـي المطيّ، ويكسـر الأقـلام. أفأبرأ مما خطت يميني وأنا الذي جعلت النور هاديا؟ وقد كان لي صاحب ذاق فعرف، فسبقني إلى بلوغ الغاية، واستجمع مـا بقـي مـن العزم فانكشـف لـه المحجـوب، والتحق بركـب الفرسـان العائدين فصـار منهم، وأنـا أراهم من بعيد، وألوّح لهم عسـى أن أجد منهـم التفاتة، وأصيح: كيف لي أن أدرك الخيل، وقد نمتُ عن السـحَر؟ كيف لي أن أستحم في بحر النور، وقد أغراني الفراش بدفئه؟ ورأيتني يوما وأنا أصارع الأمواج بزورقي الصغير، حتى انكسـر المجـداف، وانقلـب الـزورق، فصـرت ألتمس خشبة أتعلق بها، لا خوفا من فراق الجسد، بل أملا في اللحاق بالسابقين.

فيـا أهل النور، بالله عليكم، ألا تذكرون فتى هام في صباه بالنور فأينعت زهرته، وتعلق بمحراب المسـاكين فسـالت دمعته، وغنى للمسـتضعفين غير عابئ بزمجرة الرياح، وقصف الرعود؟ وها هو وكأن لسان حاله يقول: أيذهب يوم واحد إن أسأته *** بصالح أعمالي وحسن بلائيا

وأعـوذ بالله من أن أقـول ذلك مَنًّا فأكون كمن يبطل صدقاتـه بالمـنّ والأذى، ولكنـي أقـول ذلـك تحريـكا للأمـارة بالسـوء، عسـى أن تنهـض فتصـل مـا انقطع، وتلحـق بأهـل الصفة إن لم تسـتطع أن تكون من الذين نفروا ساعة العسرة.

آنس موسـى نـارا فقال لأهلـه ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْـتُ نَـارًا لَعَلِّـي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَـرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّـارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾. ثم ذهب إلى مناجاة ربه وقال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾. وسـمع إبراهيم النداء فخلّف أهله بـواد غيـر ذي زرع ولـم يعقب. فما بالك تسـمع النداء فـلا تجيـب، وتدعى إلى مأدبـة الله فلا تلبـي؟ أكل هذا إشفاقاً على ذرية لن يضيعها خالقها؟ أم ركونا إلى عيش رهيف ولبس شـفيف وظل وريف؟ فما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع. أسمع هاتفا من الأعماق يهتف: آه من قلة الزاد وبعد الشـقة ووحشـة الطريق، فتأخذني رعدة. إذا كان هذا قول من ذاق وعرف، فما قولي أنا المشدود إلـى الحطام؟ ما الذي يقعد بك يا هذا؟ وهذا رب العزة يقـول: ﴿انْفِـرُوا خِفَافًـا وَثِقَـالاً﴾، فهل تـرى منزلة بين المنزلتين؟ هيهات هيهات! كل رائح فمعتقها أو موبقها، فأيهما أنت؟ هذا أوان الاختيار!

أحباب قلبي، بالله عليكم، مدوا أيديكم لهذا الغريق! خذوني معكم إلى التلال الزمردية. ■

(*) رئيس تحرير مجلة "المشكاة" / المغرب.



تركيا: ٥ ليرات • أوروبا: ٣ يورو • أمريكا: ٤,٥ دولار

أشواق الأرض

جرداء قحلاء جدباء هذه الدنيا...بلا روح غدتْ، بلا معنى باتت، وإلى نقطة "اللاّجدوى" انحدرت... ولكنها، لا زالتْ مفعمة الرؤى، مترعة الأشواق... لزرقة السماء تتطلع، وإليها ترنو، ولها تشتاق...


ISSN 1306-1879
www.hiramagazine.com
Nisan 2010 Sayı:19 Fiyatı: 5 TL.